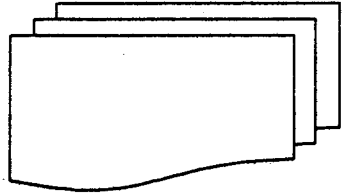


الأسرى فى الإمارات الصليبية

إعداد

د/ إمام الشافعي محمد حمودى

مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية بالكلية

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

لجنة التحكيم

أ.د/ محمد محمد عبد القادر الخطيب — مقرر اللجنة العلمية الدائمة

أ.د/ محمود عبد الفتاح شرف الدين — عضو لجنة المحكمين

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد النبي الهادي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

فإن الحرب ظاهرة اجتماعية قديمة، صاحبت الإنسان منذ نشأته على الأرض، وغالباً ما تتجاوز هذه الحرب الحدود، فتتعدى ويلاتها المحاربين إلى غير المحاربين، فيقع الأسر فى الجنود لأنهم خاضوا الحرب واشتركوا فيها، كما يقع الأسر أيضاً على غيرهم من المدنيين كالنساء والأطفال والشيوخ وذلك لتبعيتهم للعدو المحارب .

وفى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي انبعثت من الغرب الأوروبي المسيحي حركة اتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين فى الشرق بقصد امتلاكها، وقد أطلق عليها اسم الحركة الصليبية أو الحروب الصليبية، وقد مكث الصليبيون فى بلاد الشام قرابة القرنين من الزمان كانت الحرب خلالهما سجالاً بينهم وبين المسلمين، وكان من الطبيعي أن يترتب على هذه الحروب الكثير من الأسرى من الطرفين، فعلى الرغم من أن الصليبيين قاموا بالعديد من المذابح فى سكان بلاد الشام، فقد دفعتهم الظروف إلى الإبقاء على أرواح بعض السكان وإدخالهم فى زمرة الأسرى، كي يتم تعويض النقص الشديد فى العنصر البشري الصليبي وقتذاك،وذلك للاعتماد عليهم فى بعض الأعمال داخل الإمارات الصليبية، فى حين يتفرغ المقاتل الصليبي للأعمال العسكرية المتمثلة فى التوسع والدفاع عن الكيان الصليبي فى بلاد الشام .

وهذا البحث يقوم بدراسة قضية الأسرى المسلمين فى الإمارات الصليبية، فقد ذكر فيه كيف استطاع الصليبيون تأسيس إماراتهم فى بلاد الشام، ودوافعهم فى الإبقاء على بعض السكان وجنود الحرب كأسرى لاستغلالهم فى الأعمال المدنية، وكذلك بيان أعداد هؤلاء الأسرى وفئاتهم النوعية والوظيفية، وكيف كان يتم اعتقال هؤلاء الأسرى وتقييدهم بالأغلال، والأماكن التى كان يتم تجميعهم فيها داخل الإمارات الصليبية، كما كان يتم استجواب الأسرى بغية الحصول على معلومات عن المعسكر الإسلامي المعادي للصليبيين، ولم يخل الأمر من عمليات التعذيب الوحشي

لهم، هذا فضلاً عن تنفيذ بعض المذابح، والتى كان من أشهرها المذبحة الـتى جـرت فى الأسـرى المسلمين قرب عكا سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م .

ولم ينس الصليبيون فى خضم هذه الأحداث من أن يقوموا بالاسـتفادة مـن الأسـرى المسلمين، فقد كلفوهم بالمشاركة فى بناء عمائرهم الحربية، وفلاحة الأرض، وما يتعلق بهـا مـن صناعات، وتم استغلال النساء والرجال من الأسرى على حد سواء فى الخدمة فى منازل الصليبيين كما استغلوا حالة الضعف التى كان فيها هؤلاء الأسرى، ومارسوا عليهم أساليب التنصير، خاصة الأطفال منهم .

وعلى الجانب الآخر قام المسلمون ــ حكاماً ومحكومين ــ بالعديد من الجهود لإطـلاق سراح الأسرى المسلمين، واتخذت هذه المجهودات أشكالاً عدة، فكان منها الوسائل الحربية، وعقد المعاهدات مع الصليبيين لتبادل الأسرى بين الطرفين، كما أنهم لم يبخلوا عن بذل الأموال، لإطلاق سراح إخوانهم الأسرى المسلمين سواء من العسكريين أو المدنيين .

هذا وأرجو من الله العلي القدير أن يستفيد من هذا البحث كل من يقرأه، هو نعم المـولى ونعم النصير .

بين الأسرى والسبايا

الحرب ظاهرة اجتماعية قديمة، صاحبت الإنسان منذ نشأته على الأرض وعبرت بجلاء عن طبيعته التي إن كانت تميل إلى السلم، فهي تلجأ من أجل حمايته إلى الحرب.... وهكذا الإنسان منذ فجر البشرية منقض على عدوه، أو هدف لانقضاض عدوه عليه، وقد يكون صاحب حق يدافع عنه، وقد يكون باغياً لا يهدف من حربه إلا إلى التسلط والعدوان. (١)

إذا كانت أي حرب في التاريخ يجب أن تسفر عن قتلى وجرحى، فإنه لابد أن تسفر — في الغالب — عن أسرى يقعون في يد طرف من الأطراف المتحاربة، وأحيانا يقعون في أيدي كل الأطراف المتحاربة. وبما أن الغنائم تطلق على كل ما يؤخذ من العدو على سبيل القهر والغلبة فإن الأسرى يعدون من هذه الغنائم كما يعد المال والسلاح. (٢)

أما عن مفهوم لفظ الأسير في اللغة فقد جاء في القاموس المحيط أن الأسر هو الشد والعصب وشدة الخلق والخلق... والأسير الأخيذ والمقيد والمسجون، والجمع أسراء وأسارى وأسرى (٣). وقد ورد لفظ الأسرى في القرآن الكريم في أكثر من موضع منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾. الأنفال آية: ٦٧. وجاء أيضا بلفظ الإفراد في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ سورة الإنسان آية: ٨.

أما عن مفهوم الأسير في الاصطلاح فهو من يقع في يد قوم بينهم وبين قومه عداوة يتوقع منها قيام الحرب المسلحة، ويشترط في هذا الأسير انتماؤه إلى أعداء آسريه، وقد يكون هو من

---

(١) د / عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية. ط — دار الكتاب اللبناني — بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦. ص١٧.

(٢) المرجع السابق: ص١٣٨.

(٣) الفيروز أبادي: القاموس المحيط. ط — الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م — باب الراء فصل الهمزة.

المحاربين وقد لا يكون كذلك.[1] ولا يتم الأسر إلا بالاستئسار وهو تسليم الجندي نفسه للأسر كما إذا طوق الجنود من قبل العدو وعلموا ألا طاقة لهم به ولا نجاة لهم إلا بالأسر، وهم حينئذ بين أمرين كلاهما مر: إما أن يحاربوا فيفنوا أمام عدو كثير العدد كامل الأهبة وإما أن يسلموا أنفسهم لمصير مجهول لا يدرون إن كان فيه النجاة أو فيه الهلاك... فإذا عرف المسلم أنه بالاستئسار ينجو من الهلاك وكان بين خيارين: المقاومة حتى الموت أو الوقوع في الأسر فإنه يجب عليه أن يستأسر لينقذ نفسه من القتل المحقق إلى مصير لا يكون القتل فيه إلا احتمالاً[2] والله تعالى يقول: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ النساء آية: ٢٩.

إن الحروب غالبا ما تتجاوز الحدود، أو بالأحرى فإنها غالبا لا تعرف لها حدوداً وإن ويلاتها لتتعدى المحاربين إلى غير المحاربين وإذا وقع الأسر على الجنود لأنهم خاضوا المعارك واشتركوا في الحروب، فقد يقع أيضا على غيرهم من العجزة والنساء والأطفال وذلك لقيامهم بجهد حربي أحياناً أو لتوقي الأذى المتوقع منهم أحياناً أخرى، أو لمجرد تبعيتهم للعدو المحارب أحياناً ثالثة.[3]

وجاء في القاموس المحيط أيضا لفظ السبايا فهو من سبى العدو سبياً وسباء أسره كاستباه فهو سبي وهي سبي أيضاً والجمع سبايا... والسبي ما يسبى والجمع سبي والنساء لأنهن يسبين القلوب أو يسبين فيملكن ولا يقال ذلك للرجال.[4]

فالسبايا هم الصبيان والنساء الذين ظفر المسلمون ــ أو غير المسلمين ــ بأسرهم أحياء، والأسرى هم الرجال والمقاتلون إذا ظفر المسلمون ــ أو غير المسلمين أيضا ــ بأسرهم أحياء كذلك[5] كما أن لفظ السبايا لم يرد في القرآن الكريم. وعلى هذا يمكن القول بأن لفظ الأسرى أعم من لفظ السبايا لكثرة استعماله فيمن يقبض عليهم خلال الحروب، لأن الجميع ــ الرجال

(١) د / عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا. ص٨٨.

(٢) المرجع السابق. ص٢١٦ ــ ٢١٩.

(٣) المرجع السابق: ص٢٨٢.

(٤) الفيروز أبادي: القاموس المحيط. باب الواو والياء فصل السين.

(٥) د / عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا. ص٢٩٠.

والنساء والصبيا ـــ مشتركين في فعل الأخذ والتقييد والسجن.

إن الضعف الذي يعتري البشر إما أن يأتيهم من جهة التركيب، مثل النساء وليس هنـــاك دين من الأديان أزجر من الاعتداء عليهن، وأدعى إلى الرفق بهن من هذا الدين، وذلك ظـــاهر في آي القرآن، وفي أخبار الرسول ـــ ﷺ ـــ وقد يأتيهم الضعف في الوطن، وهـــم الغربـــاء، وقـــد وجدت الوصية لأبناء السبيل في القرآن مكررة، وقد يأتيهم الضعف في رقبتهم، وهم الأسرى، وقد حث القرآن على فك رقاهم وذكر بالإعتاق عليهم، وجعله من عظيم ما يكفر به الخطايا. [1]

وكما كانت هناك أحكام تجري على الأسرى الذين يأسرهم المسلمون، فلابد أن تكـــون هناك أحكام مقابلة تتعلق بالأسرى المسلمين الذين يقعون في قبضة العدو، فهم بوقوعهم في الأســـر قد خرجوا ـــ ولو إلى حين ـــ من يد الدولة الإسلامية إلى يد غيرها، وصاروا تحت سلطان عدوهم الذي يعاملهم بمقتضى قواعده وتقاليده ولا شأن له بأحكام الإسلام وتقاليده [2]. أما عن معاملـــة الأسرى على زمن الحروب الصليبية، فإنها لم تعرف اتفاقيات دولية أو أي هيئات دوليـــة أخـــرى تشرف على منكوبي الحروب من الأسرى، وإنما ترك مصيرهم تحـــت رحمـــة الغـــزاة المنتـــصرين، يتصرفون فيهم قتلاً واسترقاقاً، وبيعاً وشراء، كيفما شاءوا [3]. وهو ما سنتعرف عليه في ثنايا هذا البحث.

(١) العامري: الإعلام بمناقب الإسلام. تحقيق د / أحمد عبد الحميد غراب. ط ـــ دار الكتاب العربي ـــ القاهرة سنة ١٩٦٧م. ص١٦٤. بتصرف بسيط.

(٢) د /عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا. ص٢١٣.

(٣) د / محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد. ط ـــ دار المعارف سنة ١٩٧٩م. ص١٧٨.

تأسيس الإمارات الصليبية في الشرق

الحركة الصليبية حركة كبرى نبعت من الغرب الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها، وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوروبا في القرن الحادي عشر، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق. (١)

ففي سنة ٤٨٩هـ /١٠٩٥م دعا البابا أوربان الثاني في مجمع ديني عقد في مدينة كليرمونت ـ بفرنسا ـ إلى تجنيد جيش مسيحي وتسييره إلى بلاد المسلمين لتحقيق ذلك الغرض ومن ذلك الحين بدأ ما يسمى بالحروب الصليبية أو الحركة الصليبية (٢). ولم يقدر للصليبيين منذ دخولهم بلاد الشام سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م حتى طردهم منها سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م أن يسيطروا على تلك البلاد بأجمعها، وإنما احتلوا أجزاء متفرقة منها لا تربط بينها رابطة، وتفصل بينها أراضي ومدن وبلاد إسلامية. (٣)

أسست الحملة الصليبية الأولى وجوداً مسيحياً لاتينياً على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط استمر نحو مائتي سنة، وكانت الحملة تتكون من فيالق جاءت من مناطق كثيرة في أوروبا.... وعلى الرغم من أصول الصليبيين المختلفة، فإن الصليبيين الذين استوطنوا في شرق المتوسط كانوا يعرفون باسم " الفرنج "(*) لدى معاصريهم من المسلمين واللاتين

(١) د / سعيد عاشور: الحركة الصليبية. ط ـ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٢. جـ ١ ص٢٦.

(٢) د / حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام. ط ـ الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧م. ص٢٦٧.

(٣) د / سعيد عاشور: الحركة الصليبية. جـ١ ص٤٨٩.

(*) فرنجة أو فرنج **Frank** مأخوذة في الأصل من الألمانية وتطلق على أهل أوروبا عامة وأصلها **frank** ومعناها (حر) اسم شعب جرماني استولى على غالية سنة ٤٨٦م فسميت فرنسة **france** وهذه الكلمة مشتقة

في الشرق. [1] كانت إمارة الرها (*) هي أول إمارة أقامها الصليبيون على أرض الشام... وقد أسسها بلدوين شقيق جودفري عام ٤٩١هـ/١٠٩٧م . وقامت هذه الإمارة بدور مهم وبارز في حماية الإمارات الصليبية الأخرى خاصة أنطاكية (**)، وقد أسس إمارة أنطاكية بوهيمند النورمندي أحد القادة الصليبيين الأول عام ٤٩٢هـ/١٠٩٨م ومساحة هذه الإمارة صغيرة بالنسبة لبقية الإمارات الصليبية الأخرى. [2]

تقدم الصليبيون بعد ذلك نحو بيت المقدس واقتحموا أسوارها في ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م . وأنزلوا بأهلها مذبحة قتل فيها سبعون ألفا من سكانها [3]. فأسفرت الحملة الصليبية الأولى عن قيام مملكة بيت المقدس الصليبية التي كانت تتكون من مدينة القدس نفسها إلى جانب يافا واللد (***) والرملة (****) وبيت لحم، والخليل، كما كان لها ظهير ريفي تسكنه أغلبية من المسلمين. [4]

من اسمه، وقد أطلقها المسلمون زمن الحروب الصليبية على أهل أوروبا عامة. د / البدراوي زهران: علم اللغة التاريخي دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى. ط ــ دار المعارف ــ الطبعة الثانية ١٩٨١م. ص١٨٤.

(١) جوناثان سميث: تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية. ترجمة د / قاسم عبده قاسم. ط ــ مؤسسة عين للدراسات ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ٢٠٠٧م. ص١٦٧.

(*) الرها: مدينة بالجزيرة ــ الفراتية ــ بين الموصل والشام. الحموي: معجم البلدان، ط ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت سنة ١٩٧٩م. جـ٣ ص١٠٦ .

(**) أنطاكية: هي قصبة العواصم في الثغور الشامية وهي من أمهات البلاد. المصدر السابق جـ١ ص٢٦٦.

(٢) تيسير بن موسى: غزوات الإفرنج. ط ــ الدار العربية للكتاب ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع ص٨٦.

(٣) د / حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص٢٦٨.

(***) اللد: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين. الحموي: معجم البلدان جـ٥ ص١٥.

(****) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين المصدر السابق: جـ٣ ص٦٩.

(٤) د / قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ط ــ المجلس الوطني للثقافة ــ الكويت سنة ١٩٩٠م، ص١٥١.

بعد الاستيلاء على القدس أملت الاعتبارات الاستراتيجية والاقتصادية أن تكون الأولوية الأساسية للفرنج هي الاستيلاء على المدن الساحلية في شرق المتوسط. ففي سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م سقطت أرسوف (*) وقيصرية (**). وتم الاستيلاء على حيفا وعكا سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م ، وفي سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م أخذت بيروت وصيدا، ثم استولوا على صور سنة ٥١٨هـ ١١٢٤م . (١)

قبل سقوط مدينة طرابلس بيد الصليبيين الغزاة، كان هؤلاء قد تمكنوا من تأسيس ثلاث ممالك في الشرق، هي إمارة الرها وتولى حكمها بلدوين دي بولونيا، شقيق جودفري دي بوين، وإمارة أنطاكية في الشمال وقد استأثر بها بوهيمند النورمندي ومملكة بيت المقدس اللاتينية في الجنوب وتسلم زمام الأمور فيها جودفرى دي بويون. وقد اصطدم الفاتحون بالقوى الإسلامية التي كانت تسيطر على هذه الممتلكات وتغلبوا عليها، ثم راحوا يشنون الغارات المتلاحقة على المدن التي لم تقع بأيديهم، بغية توسيع رقعة تلك الممالك، والمحافظة عليها. (٢)

حاصر الصليبيون طرابلس في سنة ٤٩٧هـ /١١٠٣م بقيادة غليوم دي جوردان كونت دي سردانيا الذي ثابر على حصار المدينة في حصار دام خمس سنوات صمدت فيه طرابلس صمود الأبطال في وجه الأفرنج. بالرغم مما عاناه أهاليها من مجاعة وفقدان القوت. كل ذلك بمعزل عن أية مساعدة من الفاطميين في مصر أو من الخليفة العباسي في بغداد... ولولا سوء الحظ وتأخر الأسطول المصري عن نجدتها لكانت طرابلس تمادت في مقاومتها للحصار الإفرنجي مدة أطول، ولكن لكل شيء حدود وقدرتها على الحرب لها حدود فلما يئس أهاليها من مساعدة الحكام المسلمين لهم، وتأكدوا من عجزهم على مواصلة المقاومة، رضخوا للأمر الواقع وسلموا مدينتهم

(*) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. الحموي: معجم البلدان. جـ١ ص١٥١.

(**) قيصرية: بلد على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين. المصدر السابق: جـ٤ ص٤٢١.

(١) جوناثان: تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية ص١٦٨.

(٢) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق. ط ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤م. ص٢٠٢.

للإفرنج، فدخلوها في عام ٥٠٣هـ/١١٠٩م . وتأسست نهائيا الإمارة الصليبية الرابعة في طرابلس بعد إمارة الرها وإمارة أنطاكية ومملكة بيت المقدس [١]. وبفضل ما اشتهرت به هذه الإمارة من الثروة والموقع فقد ربطت بين الفرنج شمال الشام والفرنج بفلسطين، وقامت بدور هام وجوهري في تاريخ الحروب الصليبية. [٢]

وقد شاءت الظروف أن تكون طرابلس آخر مدينة كبرى بالشام تسقط في أيدي الصليبيين وآخر إمارة كبرى يؤسسها الصليبيون بعد الرها وأنطاكية وبيت المقدس، ولكنها في الوقت نفسه كانت آخر إمارة صليبية في بلاد الشام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي. فالرها التي سقطت في أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٨م عادت إلى المسلمين سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، وبيت المقدس التي استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٩م استردها المسلمون سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وأنطاكية التي غزاها الصليبيون سنة ١٠٩٨م استعادها المسلمون سنة ٦٦٧هـ / ١٢٩٨م أما طرابلس التي لم تقع في أيدي الصليبيين إلا سنة ١١٠٩م، فقد ظلت باقية في قبضتهم حتى سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م. [٣]

من خلال هذا العرض الموجز لتأسيس الإمارات الصليبية في الشرق يتضح أن الصليبيين قد مكثوا في بلاد الشام قرابة القرنين من الزمان، كانت الحرب خلالها سجالاً بينهم وبين المسلمين. وكان من الطبيعي أن يترتب على هذه الحروب الكثير من الأسرى من الطرفين، وهذا البحث هو محاولة لدراسة قضية الأسرى المسلمين وأوضاعهم في الإمارات الصليبية.

---

(١) المرجع السابق: ٢٠٣ ــ ٢٠٦.

(٢) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة د / السيد الباز العريني. ط ــ دار الثقافة ــ بيروت سنة ١٩٩٧م. جـ٢ ص١١٥.

(٣) د / سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ١ ص٣٦٧.

الصليبيون وتفضيل القتل على الأسر

على الرغم من أن الأسر يعد شيئا مأساويا بالنسبة للمأسور، وذلك لوقوع الأسير تحت رحمة آسريه، فربما يتصرفون فيه بالقتل أو الاسترقاق، أو الاحتفاظ به في قيود الأسر والذل، إلا أن الأسر أحيانا يكون أفضل من القتل مثلا، فعلى الأقل هو يضمن للمأسور فرصة أخرى للحياة ولو كانت مؤقتة. كانت السياسة العامة للصليبيين في بداية هجومهم على البلدان الإسلامية في الشرق، هي تفضيل القتل والإبادة الشاملة على الأسر.

تميزت السنوات الباكرة من الغزو الصليبي بسلسلة من المذابح، وربما كان ذلك نتيجة لسياسة رأت أن تحتفظ بالمواقع ذات الأهمية الإستراتيجية أو الدينية للمسيحيين (١). فقد كان الهدف الأساسي للحملة الصليبية الأولى، كما حدده البابا أوربان الثاني في خطبته الشهيرة في مؤتمر كليرمونت سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م هو القضاء على المسلمين وطردهم من بلادهم والاستيلاء عليها فقد صاحب استيلاء الصليبيين على غالبية مدن الشام عمليات ذبح وإبادة لسكانها المسلمين فقد حدث هذا عند اقتحام الفرنج لأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس وبيروت. وغيرهم، ولم يحدث أي تغير في سياسة الصليبيين تجاه السكان المسلمين إلا عند استيلائهم على صيدا في عام ٥٠٤هـ/ ١١١٠م . (٢)

فقد كان الصليبيون يدافعون عن هذه السياسة حتى وإن أدت إلى وقوع الاختلاف بينهم. إذ بعد استيلاء قادة الحملة الصليبية الأولى على مدينة نيقية (*) سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م لم يستطع الصليبيون إخفاء استيائهم من مسلك الإمبراطور البيزنطي تجاه أسرى نيقية، إذ ضايقهم تسامح

(١) جوناثان سميث: تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية. ص١٦٩.

(٢) د / حسين عطية: المسلمون في الإمارات الصليبية. حولية كلية الآداب. دورية علمية نصف سنوية تصدر عن كلية الآداب ــ جامعة عين شمس المجلد ٢٧ عدد ٢ سنة ١٩٩٩م. ص٦٦.

(*) نيقية: من أعمال اصطنبول ــ بتركيا ــ على البر الشرقي وهي المدينة التي عقد بها أول مجمع للملة المسيحية. الحموي: معجم البلدان: جـ٥ ص٣٣٣ .

الإمبراطور مع الأسرى... وكان الإمبراطور البيزنطي من خلال معاملاته العديدة مع المسلمين يدرك أهمية العفو عند المقدرة، ويقدر قيمة التسامح مع خصمه المغلوب، ولكن الصليبيين لم يفهموا ذلك المنطق واعتبروا مسلك الإمبراطور خيانة لهم وللقضية الصليبية[1]. فلم يكن قادة الحملة الصليبية الأولى يعترضون على تسامح الإمبراطور البيزنطي مع الأسرى المسلمين فقط، بل كانوا يعترضون على عملية الأسر ذاتها.

يقول وليم الصوري عن دخول الفرنج لأنطاكية: [2] " وطغى عليهم جنون القتل والنهب، فلم يراعوا ذكراً ولا أنثى، ولم يوقروا كبيراً لسنه " ويقول فوشيه الشارترى عن نساء أنطاكية عشية استيلاء الصليبيين عليها [3]: " أما النساء اللواتي وجدت في خيام العدو فإن الفرنجة لم يمسوهن بأذى، وإنما بقروا بطونهن بالحراب ". فقد اكتظت شوارع أنطاكية بجثث القتلى المتعفنة التي لم يتحمل أحد رائحتها، ولم يكن في استطاعة أحد أن يرتاد الشوارع دون أن يتعثر في الجثث.[4]

وتعد المذبحة التي ارتكبها الصليبيون في بيت المقدس من أكبر المذابح التي ارتكبوها في بلاد الشام، فعندما دخل الصليبيون بيت المقدس، لم يرحموا شيخا لهرمه، ولا عالما لفضله، ولا طفلا لضعفه، ولا امرأة لعجزها [5]. وقد شهد بذلك المؤرخون الصليبيون أنفسهم قبل المؤرخين

---

(١) د / سعيد عاشور: الحركة الصليبية. جـ١ ص١٦٤.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية. ترجمة د / حسن حبشي. ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩١م. جـ١ ص٣٥٩.

(٣) فوشيه الشارترى: تاريخ الحملة إلى المقدس. ترجمة د / زياد العسلي. ط ــ دار الشروق ــ عمان ــ الأردن الطبعة الأولى ١٩٩٠م. ص٦٣.

(٤) بطرس توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس. ترجمة د / حسين عطية. ط ــ دار المعرفة الجامعية ــ الإسكندرية. الطبعة الأولى ١٩٩٨م. ص١٨٤.

(٥) د / حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى. ط ــ دار الفكر العربي ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع. ص١٧٩.

المسلمين. يقول فوشيه الشارتري عن دخول الفرنجة للقدس [١]: " لو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى. ماذا أقول ؟ لم يبق منهم أحد ولم يرحموا امرأة ولا طفلا ". فقد وضعوا السيف في الأهالي أسبوعاً كاملاً وقتلوا أكثر من سبعين ألفاً من العرب. [٢] فقد حصروا جميع من في القدس من المسلمين بداخل المسجد الشريف واشترطوا عليهم أنهم متى تأخروا عن الخروج بعد ثلاثة أيام قتلوهم عن آخرهم فشرع المسلمون في الإسراع والمبادرة إلى الخروج، فمن شدة ازدحامهم بأبواب المسجد قتل منهم خلق كثير لا يحصهم إلا الله سبحانه وتعالى [٣]. ويقول المؤرخ المجهول ملخصا لهذه المذبحة [٤]: " وما تأتي لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة ".

يقول المؤرخ المجهول الآخر عن هجوم الصليبيين على دمياط سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م [٥]: "وكان رجالنا يشقون طريقهم بين الأتراك يعملون السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم دون أن يتركوا أيا منهم سواء من الرجال أو النساء أو الأطفال أو المسنين أو الشباب أو الأغنياء أو الفقراء، إذ اعملوا السيف في الجميع. ووجد الصليبيون بعض الصبايا والمسنات ممن كانوا يأخذون قسطاً من الراحة، ولاحظ اتباعنا أنهن لا يصيحون ولا يصرخون خوفا من الموت فقتلوهم عن آخرهم ".

كان بإمكان الصليبيين عند غزوهم لبلاد الشام أن يتخلوا عن سياسة القتل والذبح هذه خاصة بعد تخلصهم من الجيوش الإسلامية المسلحة، فكان باستطاعتهم الاستفادة من سكان المدن

---

(١) الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس. ص٧٥.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان. ترجمة / إسحاق أرملة. ط ـ دار المشرق ـ بيروت ١٩٩١م. ص١٢٤.

(٣) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. ط ـ حيدر آباد ـ الهند ـ لم تذكر سنة الطبع. ص٢٧٣.

(٤) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس. ترجمة د / حسن حبشي ط ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ لم تذكر سنة الطبع. ص١٢٠.

(٥) مجهول: تتمة كتاب وليم الصوري: ترجمة د / أسامة زكي زيد. ط ـ الإسكندرية سنة ١٩٨٩م. ص١٧٧.

الإسلامية الغزل، باعتبارهم أسرى يمكن تسخيرهم في بعض الأعمال الشاقة، أو الاستفادة منهم ماديا بقبول الفدية من ذويهم أو من الحكام المسلمين، أو الاستفادة منهم سياسيا عن طريق مبادلتهم بالأسرى الصليبيين، لكنهم فضلوا سياسة الذبح والإبادة الجماعية لإرضاء أنفسهم المتعطشة لدماء الأبرياء من المسلمين.

هذا ولم تكن سياسة المذابح التي ارتكبها الصليبيون قاصرة على سكان المدن الإسلامية فقط. بل مارسها الصليبيون أيضا مع إخوانهم المسيحيين. ففي سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم... ففتح الفرنج الأبواب ودخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيام وقتلوا حتى الأساقفة والرهبان والقسيسين الذين خرجوا إليهم من كنيسة آيا صوفيا العظمى وبأيديهم الأناجيل والصلبان يتوسلون بها ليبقوا عليهم [١]. وأخذ الجرحى من النساء والأطفال يلفظون أنفاسهم في الشوارع... حتى أضحت المدينة الضخمة الجميلة شبيهة بسوق اللحوم.[٢]

(١) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول. وضع حواشيه / خليل منصور. ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٩٧م. ص١٩٨.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٤ ص٢٢٢.

دوافع الصليبيين إلى الإبقاء على الأسرى

لعله من الصعب تقدير المساحة المأهولة بالسكان في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، يبد أن القسم الأكبر من سكان هذه البلاد آنذاك كانوا خارج أسوار المدن موزعين على حوالي ستة عشر ألف قرية. وكان سكان هذه المناطق من الفلاحين ومن البدو الرحل. ويبدو أن أحوال البدو لم تتأثر كثيراً بالغزو الصليبي لوقوعهم على هامش مناطق الصراع والقتال، على الرغم من مشاركتهم في القتال أحيانا كثيرة. أما الفلاحون من سكان القرى فإنهم كانوا الفريسة السهلة على الدوام لأي هجوم صليبي يشنه المستوطنون المحليون أو الصليبيون القادمون من أوروبا.(١)

كانت هناك طائفة ثالثة من المسلمين عاشت في الإمارات الصليبية إلى جانب من عاش في المدن وفي الريف من المسلمين، وهم أسرى الحرب المسلمين الذين تم استرقاقهم للقيام بأعمال السخرة في خدمة الفرنج.(٢)

لقد أدى تبادل السيادة على بعض مناطق الحضر والريف بين المسلمين والصليبيين خلال الصراع الطويل إلى حالة من السيولة السكانية ربما لم تعرف مثلها أي منطقة أخرى. فقد تحولت أقليات إلى أغلبيات في بعض المناطق، كما أن بعض مناطق أخرى شهدت العكس(٣). كان من المستحيل أن يستغن الفرنجة بالشام عن الرقيق والأقنان بعد أن اعتادوا في الغرب الأوروبي على وجود تلك الطبقة ليعمل أفرادها في فلاحة الأرض وغيرها من الأعمال الشاقة... وكان من الرقيق الذي كان تحت سيطرة الفرنجة بعض المسلمين الذين وقعوا في الأسر خلال زحف الصليبيين على بلاد الشام.(٤)

(١) د / قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص٢٠٢.

(٢) د / حسين عطية: المسلمون في الإمارات الصليبية. حولية كلية الآداب ــ مجلد ٢٧ عدد ٢ ص٦٩.

(٣) د / قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. ص٢٠١.

(٤) د / محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام. ص٨٧.

إن الأزمة الشديدة التي عاناها الصليبيون في بلاد الشام ــ بعد أن تم تأسيس الإمارات الصليبية ــ لم تكن بسبب الطعام وندرة الزاد، وإنما كانت في حقيقة الأمر أزمة في المقاتلين والرجال. وذلك أن الصليبيين لم يؤسسوا ما أسسوه من إمارات إلا بعد أن ضحوا بعدد كبير من رجالهم حتى أصيبوا بنقص خطير في الفرسان، في الوقت الذي كان بقاؤهم يتوقف على القتال والحرب. (١)

مع تغير استراتيجية الحرب لدى الفرنج، ومع إدراكهم ــ مع قلة مواردهم البشرية وخبراتهم المحدودة في أمور معيشية واجهتهم في بلاد الشام ــ لأهمية العنصر البشري المسلم، فقد عاش في الإمارات الصليبية في مملكة بيت المقدس في فلسطين، وفي كونتية طرابلس في وسط الشام، وفي إمارة أنطاكية في شماله، عدد كبير من المسلمين، وخاصة في الأقاليم الريفية التي تضمها هذه الإمارات. وقد عاش هؤلاء المسلمون جنبا إلى جنب مع المسيحيين الشرقيين كطبقة أدنى محكومة تسودها الطبقة الأعلى من اللاتين. وضمت طائفة المسلمين في هذه الإمارات، سكان المدن الذين بقوا فيها ومن عاد منهم إليها بعد فترة الغزو الصليبي الأولى. إلى جانب سكان الريف، ومن وقع في الأسر من المسلمين المدافعين عن مدنهم، ومن وقع منهم في الأسر بعد المعارك الحربية التي نشبت بين الفرنج والقوى الإسلامية المجاورة. (٢)

من خلال ما سبق يتضح أن الصليبيين بعد أن قاموا بالعديد من المذابح في سكان بلاد الشام، فقد دفعتهم الظروف إلى الإبقاء على أرواح بعض السكان وإدخالهم في دائرة الأسر، كي يتم تعويض النقص الشديد في العنصر البشري الصليبي وقتذاك، وذلك للاعتماد عليهم في الأعمال المدنية داخل الإمارات الصليبية، في حين يتفرغ المقاتل الصليبي للأعمال العسكرية المتمثلة في التوسع والدفاع عن الكيان الصليبي في بلاد الشام.

(١) د / سعيد عاشور: الحركة الصليبية. جـ١ ص٢٩٥ ــ ٢٩٦.

(٢) د / حسين عطية: المسلمون في الإمارات الصليبية. حولية كلية الآداب ــ مجلد ٢٧ عدد ٢ ص٩٣.

وسائل الصليبيين في الحصول على الأسرى

لقد تعددت وسائل الصليبيين في الحصول على الأسرى المسلمين، فكان في مقدمة هذه الوسائل الحرب المباشرة بينهم وبين الجيوش الإسلامية، وهذه الحرب يمكن أن يطلق عليها تجاوزاً حرباً مشروعة (*) وأن ما ينتج عنها من أسرى لا غبار عليه، لأن هذا أمراً طبيعياً في مثل هذه الحروب.

على الرغم من أن الحملة الصليبية الأولى سلكت مسلك المذابح مع سكان المدن الإسلامية إلا أنها استبقت على العديد من الأسرى المسلمين، يقول وليم الصوري عن أعقاب انتصار الفرنج على المسلمين في إحدى المعارك التي اعقبت الاستيلاء على انطاكية: (١) " ثم عادوا ـ أي الفرنج ـ إلى أنطاكية وقد فاضت أيديهم بالغنائم الجمة فكان مما عادوا به مما خلفه الأتراك وراءهم حين فرارهم الإماء والأطفال ".

وإذا كان بيت المقدس قد قتل من أهله أكثر من سبعين ألفاً عشية استيلاء الصليبيين عليه إلا أن الأمر لم يخل من أسرى وقعوا في أيدي الصليبيين، يقول توديبود مؤكداً على ذلك (٢): " قام رجالنا بجر عدد من الرجال والنساء الموجودين في المعبد ـ المسجد الأقصى ـ فقتلوا البعض وأبقوا على حياة البعض حسب ما تراءى لهم ". ومن الشواهد التاريخية الأخرى على هذه الوسيلة قول الشارترى عن إحدى المصادمات بين الفرنج وسلاجقة الروم سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م والتي انتصر فيها الفرنج: (٣) " وقدر عدد القتلى من الأتراك بثلاثة آلاف، كما أسر الكثيرون... كما خلفوا زوجاتهم وخادماتهن من الصبايا ".

(*) الحرب المشروعة: هي التي تخوضها الدولة للدفاع عن حقوقها ومصالحها الأساسية. د / عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا. ص٣٤ .

(١) الصورى: الحروب الصليبية. جـ١ ص٤١٦.

(٢) توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس. ص٣١٨.

(٣) الشارترى: تاريخ الحملة إلى القدس. ص١٥٧.

ويقول المؤرخ المجهول عن الملك ريتشارد قلب الأسد: [1] " ظل الملك ريتشارد منصرفاً بلا كلل أو ملل إلى مطاردة الأتراك، وكان لا يكف لحظة عن غاراته المتوالية عليهم ولا يدع لهم فرصة يلتقطون فيها أنفاسهم أو يستريحون فيها، وقلما كان يعود من هذه الاشتباكات إلا وقد قتل منهم عشرة أو اثنى عشر أو عشرين أو ثلاثين، كما يعود بالأسرى أحياء " هذا إلى جانب غيرها من الحروب المباشرة بين الفرنج والمسلمين، حيث كانت الحرب سجالا بينهم على مدى قرنين من الزمان.

ولم يكن الفرنج يحصلون على الأسرى عن طريق الحرب المباشرة مع المسلمين على البر فقط، بل كانوا يحصلون على الأسرى عن طريق المعارك البحرية أيضا، يقول الرحالة الأوروبي سايولف عن إحدى هذه المعارك [2]: " ولكن رجالنا استطاعوا بعد ذلك أسر ثلاثة من تلك السفن وأثروا أنفسهم من تلك الغنائم ". وقد ساهمت جزيرة قبرص هي الأخرى في الإغارة على ممتلكات المسلمين، فقد استولى القبارصة على بعض قطع الأسطول المصري وأسر من فيها، فتقاعس يوحنا أف إبلين John of Iblin سيد بيروت والوصي على مملكة بيت المقدس عن رد الأسرى بحجة عدم خضوع مملكة قبرص له [3]. وبعد هزيمة الأسطول الفاطمي من الأسطول الصليبي في سنة ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م تعرض أثناء عودته إلى مصر لعاصفة هوجاء قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه على الموانى الصليبية، فأسرها الصليبيون. [4]

(١) مجهول: الحرب الصليبية الثالثة. ترجمة د / حسن حبشي. ط ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م جـ٢ ص١٦٨ بتصرف بسيط.

(٢) سايولف: وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأراضي المقدسة. ترجمة د / سعيد البيشاوي.ط ـ دار الشروق عمان ـ الأردن ـ الطبعة الأولى ١٩٩٧م. ص٤٨.

(٣) د / محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة. ط ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م، ص١٠٠ ـ ١٠٣.

(٤) د / سعيد عاشور: الحركة الصليبية. جـ١ ص٣١١.

وفي شهر جمادى الأولى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م وصلت عدة وافرة من مراكب الأفرنج من صقلية إلى مدينة تنيس (*) بمصر، على حين غفلة من أهلها فهجمت عليها، وقتلت وأسرت وسبت وانتهبت، وعادت بالغنائم. (١)

وإذا كان الصليبيون يحصلون على الأسرى عن طريق الحرب المباشرة مع المسلمين سواء كانت في البر أو البحر، فإنهم أيضا كانوا يحصلون عليهم بالحرب الغير مباشرة أو ما يعرف بالإغارة وهو ما يمكن أن يطلق عليها حرباً غير مشروعة(*) بالفعل، وإن كانت حروبهم مع المسلمين عموما غير مشروعة.

في سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م أغار الفرنج من الرها على الرقة(**) وقلعة جعبر(***).. فاستاقوا المواشي وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين (٢). وفي سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م غارت الفرنج على حماه وحمص وعلى بعض النواحي، وأسروا وسبوا فيهما (٣). وفي سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م خرج الأفرنج من يافا وجاءوا إلى نابلس (****)... وقتلوا من المسلمين وأسروا بعضهم

(*) تنيس: جزيرة في بحر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقها وتعمل بها الثياب الملونة والفرش. الحموي: معجم البلدان. جـ٢ ص٥١.

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق. تحقيق د / سهيل زكار. ط ـ دار حسان للطباعة ـ دمشق الطبعة الأولى ١٩٨٣م. ص٥٠٨.

(*) الحرب غير المشروعة: هي التي يكون الغرض منها اغتصاب إقليم أو حق لدولة أخرى معترف بوجودها. د/عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا ص٣٤.

(**) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات... وهي معدودة في بلاد الجزيرة الفراتية لأنها من جانب الفرات الشرقي. الحموي: معجم البلدان. جـ٣ ص٥٩.

(***) قلعة جعبر: تقع على نهر الفرات بين بالس والرقة، قرب صفين. المصدر السابق: جـ٢ ص١٤٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. ط ـ دار صادر ـ بيروت سنة ١٩٧٩م. جـ١٠ ص٣٦٩.

(٣) الحريري: الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين. تحقيق د / مهدي رزق الله أحمد. ط ـ دار الدعوة للنشر ـ الإسكندرية ١٩٨٤م. ص٤٦.

(****) نابلس: مدينة مشهورة بأرض فلسطين تقع بين جبلين مستطيلة لا عرض لها. الحموي: معجم البلدان جـ٥ ص٢٤٨.

وكان القتل يعم النسوان والولدان والصغار والكبار، وأقاموا بها ثلاثة أيام ثم عادوا بالسبي والغنائم. [1]

ومن الوسائل الأخرى التي سلكها الصليبيون من أجل الحصول على الأسرى ـ وإن كانت تتنافى مع الشرف العسكري الذي يجب أن يتحلى به المقاتل في ساحات الحرب ـ وسيلة الغدر بالمسلمين وذلك بأن يمنحوا الأمان لسكان المدن الإسلامية المحاصرة، ثم يغدرون بهم قتلاً وأسراً بعد أن يسلموا أنفسهم بناء على عهد الأمان الممنوح لهم.

عندما حاصر بوهيمند معرة النعمان [*] بعث من ينادي بين أهلها بالأمان إن هم استسلموا إليه دون غيره من القادة الصليبيين وقطع على نفسه العهد ببسط حمايته عليهم، وأمنهم على أرواحهم وأموالهم.... فصدق البعض قوله، إلا أن بوهيمند ما لبث أن نكث بعهده وقتلهم غير مستثن سوى النساء والأطفال حيث بيعوا أسرى. [2]

كانت هذه الوسيلة من الوسائل التي عابها بعض المؤرخين الصليبيين أنفسهم على أساس أنها لا تتناسب مع شرف العسكرية، من هؤلاء وليم الصورى الذي يقول عن أسر الصليبيين لبعض البدو ببلاد الشام بعد أن أعطوهم الأمان [3]: " إن بعض هؤلاء المعاهدين البدو استطاعوا بفضل سرعة جيادهم إنقاذ أنفسهم، كما اضطر بعضهم الآخر إلى الاستخفاء في الغابات، أما البقية الباقية منهم فقد راحوا ما بين قتيل جندله السيف، وأسير يرسف في فظاظة الرق الوحشي ويقال إنه لم يسبق قط أن وجد في بلادنا مثل هذا العدد الكبير من الأسرى ومثل هذه الكمية الضخمة من الأسلاب... ومع ذلك فإن هذا العمل لم يكن عملاً صالحاً ولم يحظ بالثناء من ناحية شعبنا، لأن رجالنا شجبوا اتفاقاً سلمياً وأساءوا السيرة مع قوم لم يكونوا موضع ريبة عندنا. فقط اطمأن رجالهم إلى حسن إيمان الملك ووثقوا به، ولم يكن عندهم وسائل للمقاومة، ولكن الرب المنتقم الذي يجازي

---

(١) مجهول: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية. تحقيق / انطوان خاطر. ط ـ المعهد الفرنسي بالقاهرة ١٩٧٤م ص١٣١.

(*) معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة من مدن بلاد الشام. الحموي: معجم البلدان جـ٥ ص١٥٦.

(٢) د / حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى. ص١٥٩ ـ ١٦٠.

(٣) الصورى: الحروب الصليبية. جـ٣ ص٤٠٤.

الخطاة بما يستحقون لم يأذن لنا أن ننعم طويلاً بثمرة خطيئتنا...، ولقد عاقبنا الرب على جرمنا فصب انتقامه علينا لسوء صنيعنا ولخطايانا الكثيرة ".

كانت هناك وسيلة أخرى اتبعها الصليبيون في الحصول على الأسرى، كانت أكثر حقارة من الوسائل السابقة، وهي قطع الطريق والتلصص، وأكبر شاهد تاريخي على هذه الوسيلة هو استيلاء الكونت أرناط (**) على القافلة التجارية الإسلامية زمن صلاح الدين الأيوبي. فقد جاء جاسوس إلى الأمير (رينو دي شاتيون) وأخبره أن هناك قافلة كبيرة قادمة من القاهرة إلى دمشق، وأنها سوف تمر بالكرك(*)، فامتطى الأمير رينو صهوة جواده حالما سمع هذا النبأ وخب به سريعا إلى حيث أشار الجاسوس، وجمع حشدا كثيفا من رجاله وخرج بهم معترضين القافلة واستولوا عليها وكان بها أخت السلطان صلاح الدين الذي ما كاد يسمع خبر تعرض الأمير رينو للقافلة وأخذه إياها وفيها أخته حتى بلغ الغضب منه غايته وأزعجه النبأ أشد الإزعاج. فبادر بإرسال مبعوثين من قبله إلى الملك الجديد (جي لوزنيان ــ ملك بيت المقدس ــ) يأمره بإعادة القافلة وأخته ويعلن إليه رغبته في عدم شجب الهدنة، فأصدر الملك " جي " أمره إلى الأمير "رينو دي شاتيون " بإعادة القافلة وكذلك أخت السلطان صلاح الدين، فكان جواب أرناط عليه أنه غير فاعل ذلك أبدا، لأنه هو مولى هذه الناحية وصاحب الأمر والنهي فيها شأنه في ذلك شأن "جي" في أرضه. زد على ذلك أنه ليس بين رينو وبين المسلمين هدنة ولا عهد. فكان أخذ هذه القافلة التي ذكرناها ــ كما يقول صاحب هذه الرواية ــ هو السبب المؤدي إلى ضياع مملكة بيت المقدس... فكان هذا العمل

(**)جاء رينو دي شاتيون ــ الذي عرفه العرب باسم أرناط ــ إلى الشام سنة ١١٤٧م / ٥٤٢هـ ــ ليجرب خطه مع النبيلات المطلقات صاحبات الإقطاع في بلاد الشام،واستطاع أرناط الزواج بالأرملة الأمير كونستانس الوصية على الوريث الشرعي لإمارة أنطاكية فحكم الإمارة لصالح ابن الزوجة.د / الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام. ص٩٧

(*) الكرك: قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم ــ الأحمر ــ وبيت المقدس. الحموي: معجم البلدان. جـ٤ ص٤٥٣.

من جانبه أول مسمار دق في نعش المملكة مما أدى إلى ضياعها[1]

إلى جانب هذه الوسائل التي سلكها الصليبيون من أجل الحصول على الأسرى، أحيانا كانت بعض الظروف تجبر بعض المسلمين إلى تسليم أنفسهم كأسرى حرب للصليبيين، من ذلك قول وليم الصوري، عن نتائج إحدى المعارك التي تسبب فيها الجو العاصف والبرودة غير المعتادة في انتصار الصليبيين على قوات صلاح الدين [2]: " وظل قومنا يجيئون لبضعة أيام بالأسرى، من الغابات والجبال، بل ومن الصحارى، وكان بعض هؤلاء الأسرى ممن جاءوا إلينا من تلقاء أنفسهم مؤثرين تقييدهم بالأغلال وحبسهم على أن يظلوا هائمين على وجوههم يلهبهم البرد بسوطه ويقرصهم الجوع بأنيابه ".

(١) مجهول: ذيل وليم الصورى، ترجمة د / حسن حبشي. ط ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة٢٠٠٢م. ص٥٢ ـ ٦٠.

(٢) الصورى: الحروب الصليبية. جـ٤ ص٢٢١ ـ ٢٢٢.

أعداد الأسرى في الإمارات الصليبية

تفاوتت أعداد الأسرى المسلمين الذين وقعوا في أيدي الصليبيين ما بين القلة والكثـــرة، حسب أهمية وحجم الاحتكاك العسكري بين المسلمين والصليبيين، فكلما كانت المعركة صـــغيرة، كان عدد الأسرى ــ إذا ما قدر للصليبيين الانتصار فيها ــ صغيراً، والعكس. كما كـــان عـــدد الأسرى يزيد إذا ما وقع الأسر والسبي في النساء والأطفال، لعدم قدرة هؤلاء في الـــدفاع عـــن أنفسهم، بعكس الرجال.

بعد استيلاء الفرنج على مدينة الرها كانوا يواصلون غاراتهم على المسلمين ففـــي ســـنة ٥٠٩هــ/ ١١١٥م . خرجوا من الرها فاجهزوا على بعض العرب وقبضوا على أحد عشر عربياً واستاقوهم إلى المدينة [(١)]. يقول المؤرخ المجهول عن الملك ريتشارد قلب الأسد وذلك في أحـــداث سنة ٥٨٧هــ/ ١١٩١م [(٢)]: " حدث في يوم من الأيام أن تجمع حشد كثيف منهم ومعهم مـــا يقرب من ألف فارس وكانوا على وشك الهجوم على عسكرنا، وسرعان ما امتطى الملك ومن معه ظهور جيادهم وانطلقوا لصد المهاجمين، وهبوا إلى أسلحتهم، لكن الترك ما لبثوا أن ولوهم أقفيتهم وفروا لواذا وإن هلك بعضهم، وكان هلكاهم يومذاك ستة وعشرين رجلا وأسرنا منهم ستة عشر آخرين أخذناهم أحياء، أما الباقون فقد أسعفتهم جيادهم الخفيفة بالهروب ".

كانت أعداد الأسرى المسلمين في هذه المواجهات لا تتجاوز العشرات، وذلك يرجع إلى صغر هذه المواجهات من ناحية، وإلى أن من واجه الفرنج فيها كان من الجنود المدربين على الكـــر والفر الذين يصعب أسرهم من ناحية أخرى.

أحيانا كانت أعداد الأسرى تتجاوز المئات، فقد أنزل الصليبيون فيمن تبقى مـــن أهـــل دمياط ــ بعد أن استولوا عليها سنة ٦١٦هــ / ١٢١٩م ــ القتل والأسر والنـــهب... وفيمـــا يتعلق بالأسرى فقد احتفظ الصليبيون بأربعمائة من علية القوم وأغنياء المدينة من الجنسين كرهائن

(١) ابن العبرى: تاريخ الزمان. ص١٣٤.

(٢) مجهول: الحرب الصليبية الثالثة. جــ٢ ص١٠٧.

لمبادلتهم بالأسرى الصليبيين.[1] كانت زيادة أعداد الأسرى في هذه الحادثة طبيعية ؛ لأن الأسر تم في السكان العزل وليس في الجنود النظاميين.

في سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م انقض روجر صاحب أنطاكية في خمسمائة فارس على الترك بين حلب ومعرة النعمان.... وواصل الفرنج فتكهم بالجيش التركي... واعتقلوا ثلاثة آلاف تركي [٢]. على الرغم من أن الصليبيين انتصروا في هذه المعركة إلا أن عدد الأسرى الذي ذكره ابن العبري هنا مبالغ فيه [*]، إذ ليس من المعقول أن يتمكن جيش مكون من خمسمائة مقاتل من أسر ثلاثة آلاف !

على أية حال فقد أدت كثرة الحروب بين المسلمين والصليبيين إلى كثرة أعداد الأسرى من الطرفين، فقد كانت الحرب سجالاً، وقدر عدد الأسرى من المسلمين في بعض الإمارات الصليبية في بعض المصادر التاريخية بالآلاف. يقول مجير الدين الحنلبي عن جهود صلاح الدين في فك رقاب الأسرى المسلمين عقب انتصاره في ملحمة حطين [٣]: " فخلص في تلك السنة من الأسرى أكثر من عشرين ألف أسير ". كما حدد ابن شداد أيضاً عدد الأسرى المسلمين في مملكة بيت المقدس عشية تطهيره من الصليبيين في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ /١١٨٧م فقال [٤]: " وفرج الله عمن كان أسيراً من المسلمين وكان خلقاً عظيماً زهاء ثلاثة آلاف أسير " في حين ذكر ابن العبري أنهم كانوا خمسة آلاف أسير [٥]. لكن الدراسة أميل إلى ترجيح رواية ابن شداد ؛ لأنه كان معاصراً للأحداث ومن المقربين إلى صلاح الدين الأيوبي.

---

(١) د / محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة ص٣٢٧.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان. ص١٣٦.

(*) إن المؤرخين المسلمين مالوا إلى المبالغة في تقدير وإحصاء عدد الجيوش والقتلى والجرحى والأسرى والمفقودين في المعارك، وهم في ذلك قد التقوا مع الصليبيين في نقطة واحدة... فبعض مؤرخي الحملة الصليبية الأولى مثلا ــ لم يسعه عند رؤية أعداد ضخمة من الرجال، إلا أن يقدر ذلك بمئات الألوف. د / الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام. ص١٥٢.

(٣) الحنبلي: الأنس الجليل ص٢٨٨.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. ط ــ دار الفكر ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع ص٦٧.

(٥) ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول. ص١٩٢.

فئات الأسرى في الإمارات الصليبية

لم تكن الأعداد الغفيرة من الأسرى المسلمين في الإمارات الصليبية تنتمي إلى فئة واحدة من فئات المسلمين، كأن تكون من فئة الجنود مثلاً، وهو الأمر المعتاد في الحروب التي تنشب بين الجيوش، ولكن الأسرى كانوا ينتمون إلى فئات متعددة، فكان منهم الرجال والنساء والأطفال. وكان منهم الجنود وفلاحي الأرض العزل على حد سواء، وكانوا من الفقراء ومن أثرياء القوم أيضاً، أي أن الأسر شمل جميع فئات المجتمع الإسلامي آنذاك سواء كانوا من المحاربين أو غير المحاربين. وهذا يدل على أن الحروب الصليبية كانت حرباً شاملة ضد المسلمين.

يقول المؤرخ المجهول عن إحدى معارك الملك ريتشارد قلب الأسد مع المسلمين [١]: "ساق ـ أي الملك ـ أمامه عشرين تركياً أخذهم أحياء وكانوا من أكابر قومهم ". وذلك دون أن يذكر نوعية هذا الكبر هل في الرتبة العسكرية أو غيرها ؟ ويقول المؤرخ المجهول الآخر محدداً فئة من أسر من الجنود[٢]: " في سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م كان الفرنج قد قتلوا من المسلمين جماعة وأسروا جماعة، منهم أمراء ومقدمون "[*] ومن الرتب العسكرية التي أسرها الفرنج أيضا سلاح دار [**] نور الدين محمود، يقول ابن العبري في أحداث عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م [٣]: "انهزم المسلمون... وأسر جمع كثير وكان من جملتهم سلاح دار نور الدين فأخذه جوسلين ـ حاكم شمالي حلب ـ ومعه سلاح نور الدين ".

---

(١) مجهول: الحرب الصليبية الثالثة. جـ٢ ص١٤١.

(٢) مجهول: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية. ص٩٥.

(*) المقدم: هو الذي يكون في البلاد الشامية والحلبية متحدثاً على طوائف التركمان الذين يقدم عليهم. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. ط ـ دار الفكر ـ بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٠م. ص١٤٢.

(**) سلاح دار: هو ضابط يعهد إليه العناية بالأسلحة وهو لقب للذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير. المرجع السابق: ص٩١.

(٣) ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول. ص١٨٠.

كما وقع الأسر أيضا في فئة أخرى من فئات الجيش الإسلامي، وهي فئة السباحين أو الغواصين، فقد وقع أحد السباحين من جيش المسلمين في شباك الصيادين الفرنجة أسيراً فعاد الصيادون بأسيرهم... فاتفق الرأي على أن يسيروا به بين صفوف الجيش مكبلاً بالسلاسل [1]. غير أن أغلبية الأسرى المسلمين كانوا من الجنود العاديين، إذ لم نعثر في أي من الكتب التاريخية العربية أو الأوربية ما يثبت أن الصليبيين قد تمكنوا من أسر قائد أو أمير من الأمراء والقادة المسلمين المشهورين أو حتى غير المشهورين، وهذا يدل على مدى بسالة الزعماء المسلمين وقتذاك وتفضيلهم للشهادة على الوقوع أذلاء في أيدي الصليبيين.

وعلى الجانب الآخر تمكن المسلمون من أسر العديد من القادة الصليبيين المشهورين. بل تم أسر بعض حكام الإمارات الصليبية في الشرق أنفسهم. يقول وليم الصورى مؤكداً على ذلك: [2] " في أغسطس سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٥م حاصر نور الدين محمود حصن حارم [*] بأرض أنطاكية، فاستولى عليه واستسلم له بوهيمند أمير أنطاكية، وريموند كونت طرابلس... وجوسلين الثالث كونت الرها وغيرهم من سراة النبلاء " ومن أشهر هؤلاء القادة أيضا ـ هذا فضلا عن الملك لويس السابع الذي أسر في مصر في الحملة الصليبية السابعة ـ رينودي شاتيون ـ الشهير بأرناط عند العرب ـ ففي سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م استرد أرناط حريته بعد أن أقام في الأسر المرير بحلب أعواماً طويلة، ثم جمع له أصدقاؤه فيما بينهم مبلغاً كبيراً من المال افتدوه به فأطلق سراحه وسراح جوسلين الثالث ابن جوسلين كونت الرها. [3]

وكان وليم الصورى يعيب على القادة والزعماء الصليبيين الذين يدفعون بأنفسهم في الأسر حفاظا على أرواحهم من القتل في سبيل شرف المعركة يقول عن ذلك في بعض المواضع: [4]

---

(١) مجهول: الحرب الصليبية الثالثة. جـ١ ص١٤٣.

(٢) وليم الصورى: الحروب الصليبية. جـ٤ ص٣٣.

(*) حصن حارم: حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية وهي من أعمال حلب. الحموي: معجم البلدان، جـ٢ ص٢٠٥.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية. جـ٤ ص١٩٦.

(٤) المصدر السابق. جـ٣ ص٤١١.

"وقع في الأسر يومذاك طائفة كبيرة من زعمائنا وإن كان القتل جرى على قلة منهم، كما استسلم من غير مقاومة وكأحط العبيد المحاربين الذين عرفوا بحسن تدبيرهم وخبرتهم بالقتال، كما استسلم مثلهم تماما المحاربون العاديون فلم يتميز واحد من الفريقين عن الآخر، وذلك سعياً منهم جميعا للإبقاء على أرواحهم الشقية، ولم يأبهوا قط برق الأسر المذل ولا بالعار الذي يظل عالقا إلى الأبد بأسمائهم ". فكان هذا تعليق وليم الصورى، على القادة ــ كما ذكر آنفاً ــ ولم نعثر على أي جملة من هذه الجمل المهينة قد قيلت على أي أسير من الأسرى المسلمين عندما وقع في أسر الصليبيين.

وإذا كان الصليبيون قد فشلوا في أسر أي شخصية إسلامية كبرى حربية أو غير حربية طوال قرنين من الزمان قضوهما في بلاد الشام، فإنهم عوضوا فشلهم هذا في الإكثار من أسر فئة من فئات المسلمين هي الأكثر ضعفاً، ولا تملك لنفسها حولاً ولا قوة، وهي فئة النساء والأطفال والتي تطلق عليها الكتب العربية لفظ السبايا ولكن نطلق عليها هنا تجاوزاً لفظ أسرى، على أساس اشتراكهم مع فئة الرجال في الاعتقال والتقييد بالأغلال وهو الأمر الذي يفيده الأسر وليس السبي.

يقول ابن القلانسى عن دخول الفرنج أنطاكية: [1] " أما أنطاكية فقتل منها وأسر وسبي من الرجال والنسوان والأطفال مالا يدركه حصر ". وعندما دخل الصليبيون بيت المقدس قتلوا من المسلمين في حرم المسجد الأقصى وقبة الصخرة مائة ألف وسبوا مثلهم، وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء والصبيان. [2]

وفي سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م استولى الفرنجة على طرابلس ونهبوا ما فيها، وأسروا الرجال، وسبوا النساء والأطفال [3]. هذا إلى جانب غيرها من الشواهد التاريخية التي تؤكد على تركيز الصليبيين على هذه الفئة الأكثر ضعفاً في عملية الأسر، والتي لا تعبر عن بطولة للصليبيين في حروبهم مع المسلمين، بقدر ما تعبر عن ضعفهم.

هذا وكان الأسر أيضا يقع في فئة الأثرياء في المجتمع الإسلامي، والتي لم يمنعها غناها عن الوقوع في ذلك، يقول الشارتري عن نتائج بعض المصادمات الحربية الصليبية الإسلامية [4]:

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق. ص٢٢٠.

(٢) الحريري: الإعلام والتبيين. ص١١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. جـ١٠ ص٤٧٦.

(٤) الشارترى: تاريخ الحملة إلى القدس. ص١٠٦.

"أحضر كثير من أثرياء الأتراك الذين أسروا أحياء أمام اللورد بلدوين ومعهم أسلحة القتلى، وأخذنا جياداً بسروج مذهبة " بل كان الصليبيون يحرصون على الاحتفاظ بهذه الفئة من المسلمين في دائرة الأسر، لأنها الأكثر نفعاً ماديا بالنسبة لهم. فقد أنزل الصليبيون فيمن تبقى من أهل دمياط ــ بعد أن استولوا عليها سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م ــ القتل والأسر والنهب... فأما ما يتعلق بالأسرى فقد احتفظ الصليبيون بأربعمائة من علية القوم وأغنياء المدينة من الجنسين كرهائن لمبادلتهم بالأسرى الصليبيين [١]. فكانت هذه عادة الفرنج بعد أن استقروا في بلاد الشام وهي الإبقاء على حياة بعض الشخصيات الهامة نسبيا في المدن الإسلامية للاستفادة مادياً من بقائهم في عداد الأسرى. فبعد استيلاء بلدوين الأول على مدينة قيصرية في ٤٩٥هـ / ١١٠١م لم يفلت من القتل من كل سكان المدينة إلا عدد قليل من الفتيات والأطفال وقاضي القضاة، وقائد الحامية اللذان أبقى بلدوين على حياتهما ليحصل على فدية كبيرة. [٢]

وقد شمل الأسر أيضاً فئة التجار المسلمين، ففي سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م ضرب الفرنج الجنويون ألوفاً كثيرة من العرب القادمين من تنيس ودمياط، واعتقلوا سبعين تاجراً عربياً وباعوهم بأثمان غالية وانتزعوا منهم أربعمائة صندوق مملوءة سكراً مصرياً وخمسين حملاً أقمشة دمياطية وغير ذلك من الأمتعة. [٣] وإذا كانت فئة التجار بها من المميزات ما يدفع الفرنج لأسرها، فإنهم لم يرحموا أيضا فئة الفلاحين من الأسر، والذين لا يملكون إلا المكاتل والفؤوس، ولا علاقة لهم بالحرب من قريب أو بعيد، بل مهمتهم زراعة الأرض وإعمارها ليس إلا. إذ بعد استيلاء الفرنج على أنطاكية قام الكونت ريموند بيليه[*] بالهجوم على قلعة (تل منس) [**] هو وفرسانه، فألقوا القبض على جميع فلاحي تلك الناحية. [٤]

(١) د/ محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة. ص٣٢٧.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية. جـ٢ ص١٢١.

(٣) ابن العبري: تاريخ الزمان. ص١٣٢.

(*) ريموند بيليه: عرف بأنه فارس من ليموزين ــ بفرنسا ــ وهو سيد **Alais**. تود يبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس. ص٢٦٦ حاشية رقم (٥).

(**) تل منس: قرية تقع جنوب أنطاكية، بالقرب من معرة النعمان وقد تسلمها كونت صنجيل في ١٧ يوليو ١٠٩٨م / ٤٩١هـ. المصدر السابق: ص٢٦٦.

(٤) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس. ص٩٩.

تقييد الأسرى بالأغلال

يقع الأسير ــ خلال القتال أو بعده ــ فى قبضة آسريه، فيتحول من محارب يواجه عدوه بالقتال، ويتوقع من عدوه القتال إلى مأسور مهزوم يجرد من سلاحه وتجرى عليه أحكام الأسرى لا أحكام المحاربين، وأول إجراء يتبع معه أن يقاد إلى حيث ينتظر إجراء حكم عليه ويسير مع آسره إن استسلم للأسر، ويربط بالقيد إن خيف انفلاته ولم يؤمن من شره. [١]

كان الإجراء الأول الذى يقوم به الصليبيون مع الأسرى المسلمين هو تقييدهم بالأغلال بمجرد تسليم أنفسهم، يقول وليم الصورى عن استيلاء عمورى ملك بيت المقدس على مدينة بلبيس [*] [٢] : " ما كان باب المدينة يفتح حتى اندفعت منه القوات... ولم تراع حرمة أى شئ... واقتحم العسكر البيوت الخاصة وجعلوا الأصفاد فى أيدي كل اللاتذين بها الذين ظنوا أنهم ناجون إذا اعتصموا بها... فأما الذين شاء القدر لهم النجاة من الموت فقد كتب عليهم أن يفقدوا حريتهم وأن يقعوا فى ربقة الأسر البغيض وهو أمر يراه الشرفاء أقبح من أى صورة من صور الموت".

وكان التقييد بالأغلال يتم مع الأسرى بكل قوة وعنف، كما كان التقييد بالأغلال يشمل الرجال والنساء والأطفال على حد سواء، يقول المؤرخ المجهول عن استيلاء الملك ريتشارد قلب الأسد على حصن الداروم [**] [٣]: خرج الترك من البرج بأمر الملك وقد شدت أيديهم خلف ظهورهم بسيور من الجلد وأحكم وثاقهم حتى لقد حزت الحبال فى جلودهم وتركت أثارها فيها وكانوا ثلاثمائة نسمة من الرجال إضافة إلى من كان هناك من النساء والأطفال ". وهذا يدل على قسوة القلب التى كان يتحلى بها الصليبيون، فإذا كان التقييد بالأغلال للرجال من باب الخرف

(١) د/ عبد اللطيف عامر : أحكام الأسرى والسبايا ، ص١٤٤ .

(*) بلبيس : مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام ــ توجد فى محافظة الشرقية الآن ــ الحموي : معجم البلدان . جـ١ ص٤٧٩ .

(٢) وليم الصورى : تاريخ الحروب الصليبية . جـ٤ ص١٠٤ ، بتصرف بسيط .

(**) الداروم : قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر والواقف فيها يرى البحر . الحموي : معجم البلدان . جـ٢ ص٤٢٤ .

(٣) مجهول : الحملة الصليبية الثالثة . جـ٢ ص١٨٣ .

على فرارهم، فإن أمر الفرار مستبعد بالنسبة للنساء ومستبعد أكثر بالنسبة للأطفال.

هذا وإن كانت قيود الأسرى ساعة الأسر مصنوعة من الجلد وكانت تترك هذا الأثر السيئ فى أجساد الأسرى، فإن قيود الأسرى فى الإمارات الصليبية، كانت تصنع من الحديد ويشترك فى ذلك الرجال والنساء على حد سواء أيضاً، وهو ما يرفع من درجة معاناة هؤلاء الأسرى داخل هذه الجيوب الصليبية، يقول ابن جبير عن ذلك [1]: " من الفجائع التى يعاينها من حل بلادهم ـــ أى الفرنج ـــ أسرى المسلمين، يرسفون فى القيود، ويصرفون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، فى أسواقهم خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة ولا يغني الإشفاق عنهم شيئاً ". وهذا الأمر مخالف لكل الأعراف الأخلاقية والإنسانية، فقد أكد القانون الدولي ما جاء فى الإسلام [*] بشأن تقييد الأسير، فهو يرى ألا يكبل الأسير إلا فى حالة الهياج العصبي، ولا يجوز استخدام القوة ضده إلا فى حالة محاولته الهرب. [2]

(١) ابن جبير : اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك ، المعروف برحلة ابن جبير ، ط ـــ مكتبة الهلال ـــ بيروت سنة ١٩٨١م ، ص٢٥٢ ـــ ٢٥٣ .

(*) لقد كان تكبيل الأسير فى صدر الإسلام مجرد وسيلة لمنعه من الهرب لعدم تخصيص أماكن لاعتقاله فكان ربطه أمراً مؤقتاً حتى يتقرر مصيره . د/ عبد اللطيف عامر : أحكام الأسرى والسبايا ، ص١٤٥ .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

أماكن تجميع الأسرى

ذكر آنفاً أن الصليبيين استطاعوا تأسيس مملكة وثلاث إمارات صليبية فى بلاد الشام، وكانت مملكة بيت المقدس وهذه الإمارات الثلاث تضم إليها العديد من المدن الشامية، هذا إلى جانب الظهير الريفي لهذه المدن، فكان الصليبيون لا يودعون الأسرى المسلمين فى عواصم هذه الإمارات الصليبية فقط، بل كانت هناك أماكن أخرى إلى جانبها يودعون فيها هؤلاء الأسرى، وربما يكون السبب الأكبر فى ذلك يرجع إلى مناعة وحصانة هذه الأماكن عن غيرها.

وفى مقدمة هذه الأماكن التى ذكرتها المصادر التاريخية والتى كان يتم تجميع الأسرى فيها من أماكن أسرهم المختلفة، مدينة عكا، فقد كانت عكا زمن ملوك الفرنج تعتبر أغنى مدينة بالمملكة والمقر الأثير عندهم [1].

فى أوائل عام ٦٠٨هـ / ١٢١١م أغار ولتر أف مونتبليارد Walter of Montbeliard حاكم جزيرة قبرص على دمياط، وسبى وأسر بعض أهلها، وعاد مسرعا إلى سفينته بعد أن بلغ أهل دمياط خبر غارته، ووصل بالأسرى والغنائم إلى عكا [2]، وعندما استولى الفرنج على دمياط سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م أسروا كل من وجدوه بها وسيروهم إلى عكا فى المراكب [3]، وحينما استرد المسلمون دمياط سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م اتفقوا مع الفرنج على أن يسلموا المدينة مع جميع الأسرى العرب الذين فى عكا بشرط أن يدعهم العرب يرحلون إلى بلادهم بالأمان [4].

ويمكن إرجاع السبب فى تجميع الأسرى فى عكا فى الأحداث التاريخية السالفة الذكر إلى أن بيت المقدس ـــ وهو الأقرب إلى دمياط من عكا ـــ كانت قد تحررت من الاحتلال الصليبي ـــ ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م ـــ فكانت عكا هي المكان الأمثل لتجمع الأسرى المسلمين فيها بالنسبة

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية . جـ٤ ص٥٥ .

(٢) د/ محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، ص١٠٣ ، بتصرف بسيط .

(٣) المكين بن العميد : أخبار الأيوبيين ، تحقيق / كلود كاهن ، ط ـــ مكتبة الثقافة ـــ القاهرة ـــ لم تذكر سنة الطبع ، ص١١ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص٢٦١ .

للصليبيين، فقد كانت أهم المدن الساحلية ببلاد الشام خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين السادس والسابع الهجريين، فكان لها ميناءً صالحاً لرسو السفن، كما تمتعت بنفوذ تجاري عظيم فاق أى ميناء آخر. (١)

ومن المدن الأخرى التى كان يتم تجميع الأسرى فيها أيضاً مدينة أنطاكية ـ وقد ذكر آنفاً أهمية هذه المدينة فى فترة الوجود الصليبي فى بلاد الشام ـ فبعد أن استولى تانكرد على مدينة أفامية (*) سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م قرر حمل سائر أعيان المدينة إلى أنطاكية. (٢) ومن المدن الحصينة فى بلاد الشام والتى كانت نقطة لتجميع الأسرى فيها أيضاً مدينة بيت المقدس، فبعد أن حررها صلاح الدين الأيوبي، جمع الأسرى المطلقين ـ بها ـ وكانوا ألوفاً من المسلمين، فكساهم وواساهم، فانطلق كل منهم إلى وطنه (٣)، وبما أن كل واحد من الأسرى المسلمين قد انطلق إلى وطنه ـ أى أنهم ليسوا من سكان بيت المقدس ـ فهذا يدل على أن بيت المقدس كانت من أكبر أماكن تجميع الأسرى، لأن عدد من انطلق منها إلى وطنه أو مسقط رأسه بالآلاف.

ومن الأماكن الأخرى التى ذكرتها المصادر التاريخية كمركز لتجميع الأسرى ـ وإن كان فى مواضع قليلة ـ مدينة عسقلان ، يقول المؤرخ المجهول عن الملك ريتشارد قلب الأسد (٤):
" أرسل الملك رجالاً من الداوية (**) لتفقد الناحية التى حول القلعة المسماة بالداروم فصادفوا عشرين من الشرقيين كانوا قد خرجوا من القلعة يجمعون الشعير فأمسكوهم وأرسلوهم إلى عسقلان ".

---

(١) د/ محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص١٢٨ ـ ١٢٩ .
(*) أفامية : مدينة حصينة من سواحل الشام . الحموى : معجم البلدان ، جـ١ ص٢٢٧ .
(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص٨٩ .
(٣) أبو شامة : عيون الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق / أحمد البيومي ، ط ـ دار إحياء التراث العربي ـ دمشق ١٩٩٢م ، القسم الثاني ، ص١٥٨ .
(٤) مجهول : الحرب الصليبية الثالثة ، جـ٢ ص١٧٢ .
(**) الداوية : **Templars** أو فرسان المعبد سموا بهذا الاسم ، لأن مقرهم الأول كان فى هيكل سليمان "المسجد الأقصى" فى القدس ، وقد أسس هذا التنظيم هوف البايتري **Hugh de payns** الذى جمع مجموعة صغيرة من الفرسان فى رابطة متطوعة لتقديم خدماتها فى شكل قوافل مسلحة تخدم الحجاج فى طريقهم من القدس إلى مدينة أريحا . يوشع براور : عالم الصليبيين ، ترجمة د/ قاسم عبده قاسم ، ط ـ دار المعارف ـ الطبعة الأولى ١٩٨١م ، ص١٩٠ .

ولم تكن المدن الشامية الكبرى هي فقط التى يتم اعتقال الأسرى المسلمين بها، بل كان لبعض الحصون والقلاع المنيعة نصيباً فى ذلك، إذ بعد تحرير صلاح الدين الأيوبي للقدس الشريف قام بالاستيلاء على ست مدن وقلاع فى ست جمع تباع... وأطلق بها الأنفس والنفائس وكان فى هذه المعاقل من أسارى المسلمين عدة، لولا فتحها لما زالت عنهم تلك الشدة [1]، فكان من هذه الحصون ــ الجملة آنفاً ــ سرمينية [*]، ففي عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م أرسل صلاح الدين ولده الظاهر غازى صاحب حلب، فحاصر سرمينية... وكان فيها من أسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا، وأعطوا كسوة ونفقة. [2]

كان يتم تجميع الأسرى المسلمين فى هذه الأماكن السالفة الذكر، وكانوا يودعون فى السجون خاصة الرجال المحاربين منهم، أو من يخشى من فراره عموماً، أو من لم يتم استغلالهم فى بعض الأعمال داخل هذه الجيوب الصليبية، ففي عام ٥٨٢هـ / ١١٨٦م أغار أرناط على قافلة المسلمين... وأودع السجون من أسره منهم [3]، يقول يعقوب الفيتري عن دخول الصليبيين عكا فى الحملة الصليبية الثالثة [4]: " تعامل ملك فرنسا ــ فيليب أغسطس ــ مع المسلمين الواقعين تحت سيطرته بطريقة أكثر لباقة من ملك إنجلترا ــ ريتشارد قلب الأسد ــ وألقى بهم فى السجن لأجل مبادلتهم مع شعبنا "، وأحياناً كان يتم سجن الأسرى المسلمين مع الغنم والخنازير وسائر الحيوانات، يقول أسامة بن منقذ عن هجوم والده على كفرطاب [**] الواقع تحت سيطرة الصليبيين آنذاك [5]: " طرحوا النار فى الحصن فأحرقوا السقوف، ووقعت على الخيل والدواب والغنم والخنازير والأسارى، فاحترق الجميع... وأخرجنا الأسارى كل اثنين فى قيد ".

---

(١) أبو شامة : عيون الروضتين ، القسم الثاني ص١٩٠ .

(*) سرمينية : أو سرمين بلدة مشهورة من أعمال حلب . الحموى : معجم البلدان ، جـ٣ ص٢١٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٢ ص١٣ .

(٣) المصدر السابق : جـ١١ ص٥٢٨ .

(٤) يعقوب الفيتري : تاريخ بيت المقدس ، ترجمة د/ سعيد البيشاوي ، ط ــ دار الشروق ــ عمان ــ الأردن الطبعة الأولى ١٩٩٨م ، ص١٦٥ .

(**) كفرطاب : بلدة بين المعرة ومدينة حلب فى برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار . الحموي : معجم البلدان ، جـ٤ ص٤٧٠ .

(٥) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ط ــ دار الهلال ــ القاهرة سنة ٢٠٠٢م ، ص٨١ ــ ٨٣ .

استجواب وتعذيب الأسرى المسلمين

لا تجيز اتفاقية جنيف لسنة ١٩٤٩م للدولة المحاربة استعمال الضغط على الأسير للحصول على معلومات تفيدها فى عملها العسكري ضد دولتــه، وحددت المعلومات التى يمكن أن تطلبها إليه وهي الإدلاء باسمه ولقبه ورتبتــه (١). لكن الوضع زمن الحروب الصليبية كان يختلف تماماً عن ذلك، فقد كانت الأمور تسير مع الأسرى وفق أهواء الصليبيين، وليس وفق اتفاقيات تنظم عملية التعامل مع الأسرى. فكان من الأمور التى قام بها الصليبيون تجاه الأسرى المسلمين، هــي عمليــة استجوابهم للحصول منهم على معلومات قد تفيدهم فى حربهم مع المسلمين أو تفيدهم فى الحصول على بعض المكاسب المادية.

يقول وليم الصورى عن حصار الصليبيين لأنطاكية (٢): " وعرف من روايــة الأســرى الدقيقة أن الحلفاء الذين كانوا يزعمون الحضور لمساعدة أنطاكية قاربوا ثمانية وعشرين ألف مقاتل" يقول ريموندداجيل عن أحداث ما بعد سقوط بيت المقدس فى يد الصليبيين (٣): " هرب الرعاة مــن العرب عند مشاهدة فرساننا... وأسرنا وقتلنا عدداً قليلاً من العرب... وأرغمنا الأســرى علــى الكشف عن خططهم، وعن مدى استعدادهم، وعن أعدادهم وقواهم، وأقر الأسرى أن العــرب يريدون أن يحاصروا بيت المقدس وأن يطردوا ويأسروا ويقتلوا الفرنج ".

وإذا كان بعض الأسرى كان يدلى ببعض المعلومات للصليبيين بدافع الخوف من عقــابهم فإن بعض الأسرى كان يؤثر الموت على أن من يدلى بأي معلومات للصليبيين، يقول ريموـنــداجيل عن دخول الصليبيين لمعرة النعمان (٤): " مر بعض رجالنا بتجربة إقتياد المسلمين فى الشوارع على أمل معرفة أماكن الغنائم، فكان أسراهم يقودونهم إلى الآبار ثم فجأة يلقون بأنفسهم فى الآبار ليلقوا حتفهم مؤثرين الموت على كشف النقاب عن مكان المتاع المملوك لهم أو لغيرهم، وبسبب عنادهم لاقوا حتفهم جميعاً ".

---

(١) د/ عبد اللطيف عامر : أحكام الأسرى والسبايا ، ص١٥٠ .

(٢) وليم الصورى : الحروب الصليبية ، جــ١ ص٣١٥ .

(٣) ريموندداجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة د/ حسين عطيــة ، ط ــ دار المعرفــة الجامعيــة ــ الإسكندرية ــ الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، ص٢٦١ .

(٤) المصدر السابق . ص١٦٩ .

ولم يكن الاستجواب هو الإجراء الوحيد الذى كان يتم مع الأسرى المسلمين عقب أسرهم، بل كانوا يتعرضون لأشد أنواع التعذيب، فقد كان الأسرى يئنون فى الحصن ــ فى بيت المقدس ــ فيسمع الأنين فى أرجاء المدينة من قسوة العذاب [١]. يقول المؤرخ المجهول عن أسر الصليبيين لأحد السباحين المسلمين [٢]: " اتفق الرأي على أن يسيروا به ــ أى الأسير ــ بين صفوف الجيش مكبلاً بالسلاسل... ثم إنهالوا عليه الضرب المبرح، وراحوا يتهكمون عليه أسوأ التهكم، واشتدوا فى إيذائه وانتهوا فقطعوا عنقه، فكان فى ذلك راحته الدائمة ".

ولم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة التى قام بها الصليبيون ضد أحد الأسرى المسلمين، بل كانت هناك حالات تعذيب جماعية وصلت إلى درجة تقطيع الأطراف، ففي سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م، ظفر الصليبيون ببعض أهالي أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السلمي فى مزارعهم القريبة، فانتقم الصليبيون من أسرى المسلمين انتقاماً وحشياً بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم [٣]، وفى عام ٥٠٩هـ/ ١١١٥م خرج الفرنج من الرها وقبضوا على أحد عشر عربياً واستاقوهم إلى المدينة وبتروا أيديهم وأرجلهم وعلقوا جثثهم على السور. [٤]

(١) ابن منقذ : الاعتبار ، مخطوط ملحق بالكتاب ، ص١٠٦ .

(٢) مجهول : الحرب الصليبية الثالثة ، جـ٣ ص١٤٣ .

(٣) د/ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ص٢٦٧ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص١٣٤ .

بيع الأسرى المسلمين

استعبد الإنسان القوي من قديم الزمان أخاه الإنسان الضعيف واتخذه رقيقاً يخدمه ويسخره ويملكه ويبيعه ويشتريه، وعندما انتشرت الحروب عم الاسترقاق جميع أنحاء العالم وصار المنتصرون يبقون على حياة الأسرى لاستخدامهم وبذلك أصبح الرق نظاماً مسلماً به فى العالم.[1]

ولم يرد فى الإنجيل ــ كما لم يرد فى غيره من الكتب السماوية [*] ــ نص صريح يحرم الاسترقاق، كما لم يقل بتحريمه الحواريون أو أي من الطوائف المسيحية المختلفة فيما بعد... وسار من جاء من آباء الكنيسة بعد الحواريين، على سننهم، فأباحوا الاسترقاق وأقروه ومنهم البابا جريجوريوس الأكبر، من ذلك يتضح أن الديانة المسيحية لم تحرم الاسترقاق نصاً، ولم تلغه عملاً.[2]

مع استمرار المعارك ــ زمن الحروب الصليبية ــ وتبادل النصر والهزيمة كانت هناك باستمرار أعداد من الأسرى من الجانبين، وكان بعضهم يتحول إلى رقيق يباع فى أسواق النخاسة وهذه الأعداد الكبيرة من الأسرى، خصوصاً من يباع منهم فى أسواق الرق، كانوا يدخلون فى نسيج التركيبة السكانية لبلاد الشام ويزيدونها تنوعاً وثراء، وقد أثر هذا فى الملامح الجسدية لسكان بلاد الشام نتيجة التزاوج والاندماج.[3]

---

(١) جون كلارك : تجارة الرق والرقيق ، ترجمة / مصطفى الشهابي ــ ط دار الهلال ــ القاهرة ١٩٨١م ، ص٧ مقدمة الترجمة العربية .

(*) كان الرق سائداً فى الجزيرة العربية ، وجاء الإسلام فلم يأمر بتحريمه مرة واحدة ، ولكنه لم يقره أيضاً ، بل عمل على حصره فى أضيق الحدود والقضاء على أسبابه ، وقد حصر الإسلام مصدر الاسترقاق فى الحرب فقط بشرط أن تكون حرباً قانونية منظمة ، يسبقها الإنذار والإشهار ... فى حين كانت مصادر الاسترقاق عند سائر الأمم كثيرة ومتنوعة . المرجع السابق : ص١٠ ، مقدمة الترجمة العربية .

(٢) المرجع السابق : ص٩ ، مقدمة الترجمة العربية .

(٣) د/ قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص٢٠٤ .

كانت قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية تنص على أن " العبيد والفلاحين والأسرى كالمواشي يخضعون لقانون البيع والشراء، وأن للسيد أن يفعل ما يشاء بعبيده " [1]، فقد كان الصليبيون يحولون جزء كبيراً من الأسرى الذين يقعون فى أيديهم إلى رقيق يباع ويشترى، ففي سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م دخل الصليبيون مدينة سروج [*] وتحول سكانها إلى ما بين قتيل وأسير، وهؤلاء الأسرى عوملوا باعتبارهم رقيق حيث تم بيعهم فى الأسواق [2]، وبعد أن استولى الصليبيون على دمياط سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م بيع بعض الأسرى كعبيد فى الأسواق [3]، وهناك بعض المصادر التاريخية التى حددت أماكن هذه الأسواق، وجاء فى مقدمتها سوق مدينة أنطاكية وسوق مدينة عكا. يقول بطرس توديبود عن دخول بوهمند النورمندي معرة النعمان [4]: " اعتقل بوهمند أولئك الذين أمرهم باللجوء إلى القصر وسلبهم كل ما يملكون... وقام بقتل البعض، وأمر باقتياد البعض الآخر ليباعوا فى سوق النخاسة فى أنطاكية ".

فقد كانت تجارة الرقيق فى أيدي التجار البنادقة والجنوية، الذين أثروا ثراء فاحشاً من جراء مزاولتها، ووصل مندوبون عنهم إلى البلاد البعيدة... وقد اشتد الإقبال على شراء الرقيق إقبالاً عظيماً، مما يدل على مغالاة النخاسين فى الأثمان، وكثرة الضرائب التى يدفعها التجار عن الرؤوس التى يجلبونها ونوعها، وقد وجدت فى الشام أسواق لبيع الرقيق فى المدن الكبيرة، مثل عكا. [5]

ولم يكن بيع الأسرى المسلمين يتم بصورة فردية فى أسواق النخاسة، بل كان الصليبيون يقومون ببيع الأسرى المسلمين بيعاً جماعياً فيما بينهم أيضاً. يقول ابن القلانسى عن هجوم الصليبيين

---

(١) د/ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ص٥٠٧ .

(*) سروج : من السرج ، وهي بلدة قريبة من حران بالشام . الحموي : معجم البلدان ، جـ٣ ص٢١٦ .

(٢) د/ محمد فتحي الشاعر : أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، ط ـ المطبعة الفنية ـ القاهرة ١٩٨٩م ، ص٦ .

(٣) د/ محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، ص٣٢٧ .

(٤) توديبود : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ص٢٦٢ .

(٥) د/ الحويري : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص١٣٥ .

على سلاجقة الروم فى الحملة الصليبية الأولى [١]: " انهزم التركمان بعد أخذ أكثر دوابهم واشترى ملك الروم من السبي خلقاً كثيراً، وحملهم إلى القسطنطينية ".

وكانت عملية بيع الأسرى تتم فى النساء والأطفال، وقلما كانت تحدث فى الرجال خاصة المحاربين منهم، ويمكن إرجاع السبب فى ذلك إلى خضوع النساء والأطفال لعملية الرق أكثر من الرجال الذين يصعب بقاؤهم فى قيد الرق، لقدرتهم على الفرار والهرب أكثر من النساء والأطفال، وفى عام ٥٠٤هـ/ ١١١٠م اعتقل الفرنج سبعين تاجراً عربياً كانوا قادمين من تنيس ودمياط وباعوهم بأثمان غالية. [٢]، وفى عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م زحف ريموند الثاني حاكم طرابلس على القرى اللبنانية فقتل كل رجالها، وسبى نساءها وأطفالها، فباعهم رقيقاً بطرابلس[٣].

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص٢١٨ .

(٢) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص١٣٢ .

(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص٣٢٣ .

مذبحة الأسرى المسلمين سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م

لم يكتف الفرنج بتعذيب الأسرى المسلمين وحبسهم فى سجون إماراتهم الصليبية، بل قاموا بأكثر من ذلك، وهو تنفيذ العديد من المذابح فى الأسرى العزل الذين لا يملكون لأنفسهم حولاً ولا قوة.

قبل استيلاء الصليبيين على أنطاكية فى الحملة الصليبية الأولى تمكنوا من قتل أعداد غفيرة من الأتراك، واقتادوا الأسرى أمام بوابة أنطاكية، وضربوا أعناقهم لتكدير الأنطاكيين [١]، وذلك دون أن تحدد هذه الرواية الآنفة الذكر عدد هؤلاء الأسرى الذين نفذت فيهم هذه المذبحة وهل كانوا من العسكريين أم من المدنيين ؟.

يقول المؤرخ المجهول عن حصار الفرنجة لحصن حارم سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م [٢]: " احتدم القتال بين الفريقين وهلك الكثيرون من أعدائنا ووقع غيرهم فى الأسر، ثم سيقوا حيث ضربت أعناقهم أمام باب المدينة مبالغة فى زيادة آلام من بداخلها ونكالاً بهم "، وقد اتفقت هذه الرواية مع سابقتها فى بيان دافع الصليبيين فى تنفيذ مثل هذه المذابح، وهو إصابة المحاصرين داخل المدن الإسلامية بالإحباط، وبث الرعب فى قلوبهم مما يعجل باستسلامهم للصليبيين.

وكانت هناك دوافع أخرى لتنفيذ مثل هذه المذابح فى الأسرى المسلمين مثل رفض الأسرى اعتناق المسيحية، فقد هجم الصليبيون بقيادة ريموند بيليه على حصن قرية تل منس فأسروا كل من فيه من المسلمين وأبقوا على حياة من اعترف بالمسيح... وقتلوا كل من رفض منهم اعتناق المسيحية [٣]، وفى سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م ــ أثناء حصار الصليبيين لدمياط ــ حاولت فصيلة مكونة من خمسمائة مملوك تركي اجتياز خطوط العدو، ولكن تم صدهم وفشلت المحاولة، وتم أسر معظم الجنود وقتلوا، ومثل بجثثهم وعلقت رءوسهم أمام حصون المدينة المحاصرة. [٤] غير أن

---

(١) توديبود : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ص١٣٦ .

(٢) مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص٥١ .

(٣) توديبود : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس . ص٢٥٦ .

(٤) ريمون ستانبلوى : مفاتيح أورشليم القدس ، ترجمة / عايدة الباجوري ــ ط المجلس الأعلى للثقافة ــ القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٤م ، ص١٣٤ ــ ١٣٥ .

المذبحة الكبرى التي ارتكبها الصليبيون في حق الأسرى المسلمين على طول تواجدهم في بلاد الشام، كانت المذبحة التي حدثت بالقرب من عكا سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م، فقد حاصر الفرنج مدينة عكا بقيادة ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس ملك فرنسا فيما يسمى بالحملة الصليبية الثالثة، وعجز صلاح الدين الأيوبي عن إنقاذ المدينة المحاصرة فتم عقد صلح بين أهل المدينة والفرنج، اشترط فيها الفرنج شروطاً قاسية، لم يقبلها صلاح الدين في البدء عندما علم بها، ولكنه عاد فوافق عليها، لعدم قدرته على إعانة المدينة. [١]

وتم الاتفاق بين المسلمين والفرنج على أن يعطي لهم الفرنج الأمان في مقابل أن يسلموا إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومئتي ألف دينار وألف وخمسمائة فارس أسير مجاهيل الأحوال. ومائة فارس معينين من جانبهم، وصليب [*] الصلبوت. [٢]

ورحل الملك فيليب ملك فرنسا إلى بلاده وتولى ريتشارد القيادة العامة للجيش، وأضحى له مباشرة المفاوضات مع صلاح الدين... وشرع صلاح الدين في جمع الأسرى والأموال المطلوبة منه، ثم قدم لزيارة معسكره في ٢ أغسطس سنة ١١٩١م قادة مسيحيون من قبل ريتشارد، يحملون موافقة ريتشارد على اقتراح صلاح الدين الذي يقضي بأن يؤدي المال المطلوب وأن يعيد الأسرى في أقساط ثلاثة، كل قسط شهر، على أن يطلق ريتشارد سراح الأسرى المسلمين بعد دفع القسط الأول... وفي ١١ أغسطس سنة ١١٩١م جرى إرسال القسط الأول من الرجال والأموال إلى المعسكر المسيحي، وعاد رسل ريتشارد ليخطروه أن المقادير تمت تأديتها على الوجه الصحيح، ماعدا الأسرى المعينين من جانبهم، فإنهم لم يكونوا فرغوا من تسليمهم، ولهذا السبب لن يسلموا عساكر صلاح الدين، الذين وقعوا أسرى في أيديهم في عكا، فطلب إليهم صلاح الدين إما أن

---

(١) سعيد برجاوي : الحروب الصليبية ، ص٤٢٣ .

(*) الصليب : هو الذي يتخذه النصارى على ذلك الشكل المعروف ... ولعل كلمة صليب بمعنى الرمز الأكبر عند النصارى قد أخذت من الآرامية حيث ترد بهذه الصيغة نفسها ، وهي لم ترد في القرآن الكريم ... وقد غنم المسلمون في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م " صليب الصلبوت " وهو صليب دخلت في صنعه قطعة من الصليب الحق ــ بزعمهم ــ . نخبة من العلماء : دائرة المعارف الإسلامية ــ ط ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع ــ مادة صليب ، جـ١٤ ص٣٢١ ــ ٣٢٢ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص١٦١ .

يقبلوا القسط مع رهائن عن السادة الذين لم يسلموا بعد، فيرسلون إليه رجاله، وإما أن يقبلوا القسط، ويجعلوا رهائن عنده حتى يضمن إطلاق سراح رجاله، ورفض الرسل كلا الاقتراحين، إنما طلبوا القسط ولم يعرضوا سوى بذل الوعد حول تسليم الأسرى المسلمين، وإذ لم يثق صلاح الدين فى وعدهم، رفض أن يعطيهم شيئاً ما لم يطلق سراح عساكره. أضحى ريتشارد حريصاً على أن يغادر عكا، وأن يزحف على بيت المقدس، وصار الأسرى المسلمون مصدر حيرة له، فانشرح صدره لما تهيأ له من الغدر للتخلص منهم، فأعلن فى برود شديد يوم ٢٧ رجب ٥٨٧هـ / ٢٠ أغسطس ١١٩١م أى بعد أن مضى ما يزيد على أسبوع على عودة الرسل إليه، أن صلاح الدين نقض عهده، وأمر بالإجهاز على الأسرى المسلمين. (١)

فخرج الفرنج وقت العصر فى ٢٧ رجب ٥٨٧هـ / ٢٠ أغسطس ١١٩١م وأحضروا من الأسارى المسلمين من كتب الله عليه الشهادة، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم فى الحبال ووقفوا بهم، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبراً وطعناً وضرباً (٢)، فقد اشتد حماس عساكره للقيام بهذه المجزرة، وقد حمدوا الله ــ حسبما يرى فى جذل وسرور المدافعون عن ريتشارد ــ لما هيأ لهم من فرصة للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام عكا، ولقيت زوجات الأسرى وأطفالهم مصرعهم إلى جوارهم... وشهد المسلمون المرابطون فى أقرب المعاقل إلى عكا ما قد حدث، فاندفعوا لانقاذ ذويهم، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى الظلام، فإنهم لم يستطيعوا الوصول إليهم، ولما انتهت المذبحة، غادر الإنجليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة المتعفنة، وأضحى بوسع المسلمين أن يقدموا للتعرف على أصدقائهم الذين استشهدوا (٣) هكذا أمر الملك ريتشارد قلب الأسد بقتل ثلاثة آلاف أسير دفعة واحدة، مرتكباً بذلك أكبر خطأ سياسي كما يقول الإفرنج، علماً بأن صلاح الدين كان قد وفى بوعده معه فأطلق أسرى الأفرنج ودفع المال المتفق عليه. بعدئذ، وأعاد صليب الصلبوت. (٤)

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٤ ص١٠٥ ــ ١٠٦ .

(٢) أبو شامة : عيون الروضتين . القسم الثاني ، ص٣٥١ .

(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٤ ص١٠٦ ــ ١٠٧ .

(٤) برجاوي : الحروب الصليبية ، ص٤٢٥ .

هذا ولم يرد فى المصادر التاريخية العربية أو الأوروبية ما يفيد أن المسلمين قد ارتكبوا جزءاً من هذه المذابح الجماعية التى ارتكبها الصليبيون تجاه الأسرى المسلمين العزل، وهذا يرجع إلى سمو أخلاق المسلمين وإتباعهم لتعاليم الإسلام التى تنهى عن ذلك الأمر الشنيع المبني علـــى الغـــدر فى المقام الأول.

إن أمر الأسرى فى الإسلام يتلخص فى اختيار الإمام أو الحاكم ــ مهما كان لقبه ــ بـــين شيئين لا ثالث لهما، وهما المن أو الفداء، وذلك بنص قولـــه تعالى: ﴿ فَإِمَّا مَناًّ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ محمد: آية ٤، فهو يدل دلالة صريحة على التخيير بين هذين الشيئين ومـــا يقال عن نسخ هذه الآية بآية السيف أو غيرها فلم يقم عليه دليل معقول... أما القتل أو الاسترقاق فهما من قبيل المعاملة بالمثل، ولا يقدم عليهما المـــسلمون إلا إذا مارســـهما العـــدو فى أســـرى المسلمين.[١]

يقول المؤرخ المجهول عن أسر صلاح الدين الأيوبي لبعض فرسان الداوية [٢]: " عـــصف الغضب بصلاح الدين وأمر بقتل الداوية عن بكرة أبيهم فى لحظته هذه، فما فرغ من كلامه حـــتى بدأ القتل يستحر فيهم، فعظم الأسى والحزن عليهم، وكانت مذبحة كبيرة وكثر الدم المـــسفوك". والحقيقة هي أن صلاح الدين الأيوبي كان قد اتبع سياسة خاصة مع أسرى الداوية ــ وغيرها مـــن الجماعات الدينية الصليبية المسلحة ــ اقتضت قتل كل من يقع منهم فى الأسر، وسبب ذلك هـــو تنكر فرسان هذه الجماعات الدينية العسكرية للمبادئ الإنسانية التى كرسوا حياهم من أجلها، ولما عرف عنهم من التعصب الأعمى، وسفك دماء المسلمين الأبرياء منهم خاصة. [٣]

---

(١) د/ عبد اللطيف عامر : أحكام الأسرى والسبايا ص٢١٠ .

(٢) مجهول : ذيل وليم الصورى ، ص١٥٣ .

(٣) د/ الحويري : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص١٨٠ .

استغلال الأسرى فى المناورات الحربية

كان الصليبيون يعملون على استغلال الأسرى المسلمين كلما سمحت له الظروف بذلك فكانوا يعملون على استخدام قضية أسرهم فى المناورات الحربية بغية تحقيق بعض المكاسب العسكرية أو السياسية من القادة والحكام المسلمين، ففي عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م أرسل صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين لحصار تبنين (*)، فحصرها، فلما ضاق عليهم الأمر واشتد الحصار، أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين، وهم يزيدون على مائة رجل (١)، وفى عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م عزم صلاح الدين على التوجه إلى أنطاكية وحصرها فخاف البيهمند صاحبها من ذلك، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة، وبذل إطلاق كل أسير عنده من المسلمين... فأجاب إلى ذلك. (٢) فقد كان الأسرى المسلمون فى هاتين الروايتين السابقتين هم المنقذ للصليبيين من المهالك فقد قاموا باستغلال الأسرى فى فك الحصار الإسلامي عن مدنهم المحاصرة، لعلمهم بأهمية هذه القضية بالنسبة للقادة المسلمين.

أحياناً كان الصليبيون يناورون بقضية الأسرى بأكثر من ذلك، فقد كانوا يهددون بقتل كل من لديهم من الأسرى المسلمين لإجبار القادة المسلمين على عقد المعاهدات معهم. فقد زحف صلاح الدين إلى أورشليم القدس وحاصرها ونصب منجنيقات ضخمة على سورها فى الناحية الشمالية لاتساعها وموافقتها لإقامة المحاربين... ولما قنط الفرنج وآيسوا من الحصار أرسلوا اثنين من العقلاء إلى صلاح الدين يطلبون الأمان، لكنه أبي وقال: لن أفتح المدينة إلا بالسيف وسأفعل بكم كما فعلتم أنتم بالعرب حين ملكتموها إذ قتلتم وسبيتم. (٣)

(*) تبنين : بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بلدة بانياس بين دمشق وصور ، الحموي : معجم البلدان ، جـ٢ ص١٤ .

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١١ ص٥٤٢ .

(٢) المصدر السابق : جـ١٢ ص١٩ .

(٣) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص٢١٠ بتصرف بسيط .

فلما رفض صلاح الدين أن يعطي الأمان في البداية لسكان بيت المقدس أرسل إليه من به يقولون له: إننا سنقتل من عندنا من أسارى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسـير (١)، وإذا رأينـا أن الموت لابد منه فوالله لنقتلن أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا ولا نترككم تغنمون منا ديناراً ولا درهماً (٢)، فشاور صلاح الدين في الأمر فقالوا له: إن الفرنج يصنعون أكثر مـن ذلـك فالأجـدر أن نصالحهم، فقبل صلاح الدين الصلح. (٣) وذلك خوفاً منه على أرواح الأسرى المسلمين.

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ١١ ص٥٤٩ .

(٢) ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول ، ص١٩٢ .

(٣) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص٢١١ .

أحوال الأسرى فى الإمارات الصليبية

مع استمرار المعارك بين المسلمين والصليبيين وتبادل النصر والهزيمة كانت هناك باستمرار أعداد من الأسرى من الجانبين، وكان بعضهم يتحول إلى رقيق يباع فى أسواق النخاسة، وكان البعض يقتل ـــ كما ذكر آنفاً ـــ على حين بقي البعض الأخر من الرجال والنساء لأداء الأعمال الحقيرة وهم فى حال الأسر [1]، فقد اعتاد الصليبيون تحويل المسلمين من أسرى المعارك إلى عبيد وذلك بصفة دائمة مالم يكونوا من طبقة عالية، فكانوا يحتفظون بهم حتى يمكن تبادلهم بالأسرى الصليبيين أو الحصول على الفدية. [2]

فقد كان الصليبيون يبقون على حياة بعض الأسرى الذين يمكن الاستفادة منهم بالرغم من المذابح العديدة التى ارتكبوها فى الأسرى وغير الأسرى. يقول المؤرخ المجهول عن دخول الصليبيين بيت المقدس [3]: " عثر رجالنا فى المعبد ـــ المسجد الأقصى ـــ على فئة كبيرة من الرجال والنساء فقتلوا البعض وأبقوا على الذين أحسنوا بهم الظن "، ويقول فوشيه الشارترى عن سقوط مدينة القيصرية فى يد الصليبيين سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م [4]: " لم يبق إلا قلة ضئيلة من الذكور، ولكننا استبقينا كثيراً من النساء، فقد تجدر الإفادة منهن على الأقل فى دفع الطواحين ".

وعلى الرغم من مذبحة الأسرى الكبرى التى نفذها الملك ريتشارد فى المسلمين ـــ الآنفة الذكر ـــ فإن الصليبيين لم يبقوا على حياة أحد، سوى بعض الأعيان وبعض رجال أشداء للإفادة منهم فى أعمال السخرة. [5] فقد كان العمل بالسخرة يقع أكثر ما يقع على كاهل أسرى الحرب من المسلمين الذين تم أسرهم أثناء اقتحام الفرنج للمدن الإسلامية أو فى المعارك الحربية، فقد اعتاد الصليبيون منذ البداية، ورغم اتسام اقتحامهم للمدن الشامية بالعنف وإجراء المذابح بين السكان

---

(١) د/ قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص١٦٩ .

(٢) د/ محمد فتحي الشاعر : أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس ، ص٢٤ .

(٣) مجهول : أعمال الفرنجة ، ص١١٩ .

(٤) الشارترى : تاريخ الحملة إلى القدس ، ص١١٥ .

(٥) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٤ ص١٠٦ .

المسلمين، على المحافظة على بعض السكان المسلمين لاستخدامهم فى أغراض كثيرة. [1]

في عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م ، رفض الداوية والاسبتارية عرض السلطان الظاهر بيبرس لاستبدال الأسرى المسلمين لديهم بمن لديه من أسرى الفرنج من الجماعتين الرهبانيتين، لأن أسرى المسلمين كانوا جميعاً من الحرفيين، وكان استخدام غيرهم من الحرفيين سيكلف الفرنج الكثير من الأموال. وكان بيبرس بالطبع يعرف أسباب رفض الفرنج لعرضه. فقد زجر السلطان بعض رسل الداوية والاسبتارية الذين وفدوا إليه لعقد الصلح بسبب احتفاظهم بأسرى المسلمين لاستغلال جهودهم فى شتى الأعمال، الأمر الذى كان يهم الفرنج أكثر من فك أسر بنى جلدهم اللاتين لدى المسلمين. [2]

فقد سخر الصليبيون الأسرى المسلمين فى العمل فى دار السيد الإقطاعي، وأرغم على احتراف الزراعة فى ضياعه، والقيام بالحرف الصناعية التى يحتاجها، وقهره على العمل فى البناء [3]، وبالجملة كان الأسرى يصرفون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد. [4]

هذا ويمكن أن نتعرف على أحوال الأسرى المسلمين فى الإمارات الصليبية والأعمال التى أنيطت بهم فى النقاط الآتية:

١ـ بناء الأسرى للعمائر الحربية:

قبل أن يشرع الصليبيون فى بناء الحصون والقلاع الحربية التى تقوى من كيانهم فى بلاد الشام، قاموا باستغلال الأسرى المسلمين فى أبشع الأعمال الحربية، وهي مواراة جثث إخوانهم القتلى من المسلمين.

فعندما خفت شهوة القتل لدى الصليبيين بعد دخولهم بيت المقدس كانت أولى المهام التى واجهتهم هي مواراة الجثث التى فاحت منها الروائح النتنة فى كل أنحاء المدينة، أو التخلص منها

---

(١) د/ حسين عطية : المسلمون فى الإمارات الصليبية ، حولية كلية الآداب ، المجلد ٢٧ عدد ٢ ص٧٧ .

(٢) المرجع السابق : نفس العدد والصفحة .

(٣) د/ الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص٨٧ .

(٤) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص٢٥٢ ــ ٢٥٣ .

بطريقة ما [١]، فقام الأحياء من المسلمين بسحب جثث زملائهم إلى خارج أبواب المدينة وكفنوهـا وجمعوها في أكوام في روابي بلغت ارتفاع البيوت [٢]، كما استغل الصليبيون الأسرى المسلمين أيضاً في نقل آلات الحصار المستخدمة في حصار المدن الإسلامية، فعندما أراد الصليبيون أن يبنوا آلات الحصار التي كان يجب عليهم أن يستخدموها في حصار بيت المقدس. قام خمسون أو ستون من الأسرى المسلمين بحمل الأخشاب على أكتافهم. [٣]

أما ما يتعلق ببناء العمائر الحربية الصليبية فمن الصعب القول عمن كان له الفضل في بناء هذه القلاع العملاقة هل هم المسلمون ؟ أو المسيحيون ؟... لكن كانت الأيدي العاملة المستخدمة في بناء هذه القلاع من أسرى الحرب من كلا الجانبين [٤]، فقد استغل الفرنج أسرى الحرب من المسلمين من ذوى المهارات الحرفية في تشييد وبناء القلاع والحصون، سواء النجارين منهم أو البنائين، وتمدنا المصادر الإسلامية برواية طريفة تدل على اهتمام الفرنج بالمحافظة على حياة هؤلاء المسلمين، فرغم قهور ريتشارد الأول ملك إنجلترا الذى أمر بذبح سكان عكا المسلمين في عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م بعد أن تعثرت مفاوضاته مع صلاح الدين آنذاك، فقد أبقى الفرنج على حياة رجل واحد فقط من المسلمين كان معروفاً مقدماً أو قوياً أعد للعمل في عمائرهم. [٥]

٢- فلاحة الأراضي الزراعية والصناعة القائمة عليها:

كان الفلاح في نظر الفرنج مرتبطاً بالأرض حتى لو انتقلت ملكيتها من سيد إلى سيد آخر من اللاتين، فينتقل فلاحوها ليكونوا تحت سلطة السيد الجديد، واعتبر الفلاحون أقناناً غير أحرار، ولم يكن يسمح لهم بترك الأرض أو القرى دون إذن السادة اللاتين أصحاب الإقطاعات، فقد أجبر الصليبيون من أصحاب الإقطاعات الفلاحين المسلمين على العمل بالسخرة في الأراضي المخصصة

---

(١) د/ قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص١٠٦ .

(٢) توديبود : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ص٣١٩ .

(٣) المصدر السابق : ص٣١٦ .

(٤) ستانبلوى : مفاتيح أورشليم القدس ، ص٨٢ ــ ٨٣ .

(٥) د/ حسين عطية : المسلمون في الإمارات الصليبية ، حولية كلية الآداب ، مجلد ٢٧ عدد ٢ ص٧٧ ، وكذلك ، أبو شامة : عيون الروضتين ، القسم الثاني ، ص٢٥١ .

للسادة اللاتين، من بساتين الزيتون والكروم وقصب السكر. [1]

وقد ازدهرت صناعة السكر فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية وكان معظم استهلاك أوربا من السكر على بلاد الشام... وقد حرص الصليبيون على نقل هذه الصناعة إلى أوروبا، والدليل على ذلك انتقال كلمة " معصرة " ـ مثلاً ـ العربية إلى اللغات الأوروبية باسم Ma'asera ، ولقلة خبرة الصليبيين فى صناعة السكر فقد قام الصليبيون بتقليد أهالي بلاد الشام فى هذه الصناعة... كما استعان الصليبيون بالأسرى المسلمين أحياناً لإدارة معاصر السكر بمدينه عكا، كما استغلوا النساء بمدينة قيسارية عندما استولوا عليها للعمل بمعاصر السكر بها. [2]

٣- خدمة الأسرى فى منازل الصليبيين:

من الأعمال التى أنيطت بالأسرى المسلمين فى الإمارات الصليبية، الخدمة فى منازل الصليبيين، خاصة الأسيرات من النساء، فعندما استولى الفرنج على قيسارية سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠١م ، نجت الغالبية العظمى من النساء من القتل، ولكن ليواجهن حياة العبودية والرق والمذلة، وأجبروا بعضهن على العمل فى الطواحين اليدوية [3]، كما استخدم بعضهم النساء المسلمات فى المنازل الصليبية كطباخات... وتحدث أسامة بن منقذ عن صديق له دعى إلى مائدة أحد الفرسان من فرنج أنطاكية، قدامى العهد ببلاد الشام، ولما رأى الفرنجى صديق أسامة متوقفاً عن تناول الطعام، طمأنه قائلاً: كل طيب النفس، فأنا ما آكل من طعام الإفرنج، ولى طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن، ولا يدخل فى داري لحم الخنزير. [4]

ولم تكن الخدمة فى منازل الصليبيين قاصرة على الأسيرات المسلمات، بل شاركهم فى ذلك الرجال أيضاً، فقد كان لأخت ملك الإنكتار ـ ملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد ـ خادمان مسلمان فى الباطن كانا فى خدمتها فى صقلية، وكانت هي زوجة صاحب صقلية، فلما مات ومر

(١) د/ حسين عطية ، المسلمون فى الإمارات الصليبية . حولية كلية الآداب ، مجلد ٢٧ عدد ٢ ص٧٣ ـ ٧٦.

(٢) سعيد الغمري : الحرف والصناعات فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب ـ جامعة الزقازيق سنة ١٩٩٨م ، ص٤٧ .

(٣) د/ محمد الشاعر : أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص٧ .

(٤) د/ حسين عطية : المسلمون فى الإمارات الصليبية ، حولية كلية الآداب ، مجلد ٢٧ عدد ٢ ص٧٧ ـ ٩٠.

أخوها بالبلد أخذها وأصحابها معه إلى العسكر ـــ ببلاد الشام ـــ وهرب الخادمـان إلى العسكر الإسلامي ـــ أثناء حصار الفرنج لعكا ـــ فقبلهما السلطان صلاح الدين وأنعم عليهما إنعاماً عظيماً. (١)

٤ـ محاولات تنصير الأسرى المسلمين:

من الأمور التى عانى منها الأسرى فى الإمارات الصليبية، محاولة الصليبيين إجبارهم على اعتناق المسيحية، والتى وصلت فى بعض الأحوال إلى درجة التخيير بين القتل أو قبول التنصير، من ذلك أن الكونت ريموند بيليه قام بالهجوم على قلعة " تل منس " هو وفرسانه، فألقوا القبض على جميع فلاحي تلك الناحية، وقتلوا كل من أبى اعتناق النصرانية، أما أولئك الذين آثروا الإيمان بالمسيح فقد خلوا سبيلهم وأبقوا على حياتهم (٢)، ولا شك أن من اعتنق المسيحية فى هذه الحادثة كان اعتناقاً فى الظاهر، وذلك خوفاً على أرواحهم، لكنهم كانوا فى الباطن مسلمين.

فمن العادات التى تمسك بها الفرنج أشد التمسك، ضرورة تنصير العبد إذا عاش وسط مسيحيين، وكان سيده فى الوقت ذاته مسيحياً، وليس من المستبعد أن يجبروه على اعتناق مذهبهم الديني الخاص، فإذا تنصر لم يجز المشرعين بيعه أصلاً لمسلم مهما أغلى ثمنه، ويرون فى ذلك حطة للصليبي، إن لم يكن خرقاً دينياً (٣)، كما اتسم موقف الصليبيين فى مواجهة السكان المحليين الذين كانت غالبيتهم من المسلمين بكثير من اللامبالاة، فلم يقوموا ببذل أى مجهود أو محاولات لكسبهم وفضلوا اللجوء إلى القوة، أما الأسرى المسلمون الذين أرادوا اعتناق المسيحية فلم يفرج عنهم، وذلك عكس ما كان يفعله المسلمون من الإفراج عن الأسرى المسيحيين إذا أرادوا اعتناق الإسلام. (٤)

بعد أن استولى الصليبيون على دمياط سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م استطاع جاك دى فترى ـــ واعظ هذه الحملة ـــ الاحتفاظ بأكثر من أربعمائة طفل من أطفال المدينة ثم قام بتعميدهم كما

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص١٥٢ .

(٢) مجهول : أعمال الفرنجة ، ص٩٩ .

(٣) د/ الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص٨٧ .

(٤) ريمون ستانبلوى : مفاتيح أورشليم القدس ، ص٥٥ .

عهد جاك دى فترى إلى بعض أصدقائه ببعض الأطفال الآخرين ليتكفلوا بهم ويعلموهم الكتاب المقدس والشعائر الدينية، وقد تحمل فترى فى سبيل ذلك كثيراً من العناء والمال، وهذا يؤكد على ارتباط الناحية التنصيرية عند الصليبيين الغربيين بالفكرة الصليبية نفسها. (١)

٥ ـ الوضع الاجتماعي للأسرى المسلمين:

بالرغم أن الفرنج قد تعايشوا مع المسلمين فى المدن والقرى الصليبية، إلا أن الاختلاط بين الطرفين منعه حاجز العقيدة، ويتضح ذلك جلياً من بعض القرارات التى اتخذها مجلس نابلس Council of Noblus الذى انعقد فى عام ١١٢٠م برئاسة الملك الصليبي بلدوين الثاني (١١١٨ ـ ١١٣٠م) وجير موند بطريرك بيت المقدس، لإصلاح أحوال الصليبيين وأحوال المملكة المتردية، ورفع المستوى الأخلاقي للفرنج، فنجد القرارات من الثاني عشر إلى السادس عشر تعكس التناقض بين موقف الفرنج من المسيحيين الشرقيين وبين موقفهم من المسلمين، فهذه القرارات تحرم بصرامة شديدة على الفرنج رجالاً كانوا أم نساءً الارتباط بالمسلمين بأى شكل سواء ذلك من خلال علاقات شرعية أو غير شرعية، أى عن طريق الزواج (*) أو بدونه، وحدد المجلس عقوبات صارمة تطبق على الطرفين المسلمين والفرنج إذا ما حدث بينهما هذا الارتباط ولو عنوة، مخالفين بذلك قرارات المجلس الصليبي، مثل الإخصاء وجدع الأنف والتحول إلى القنية (بالنسبة للمسلمين فقط)، والقتل كعقوبة للزنا (**)، ولمواجهة إدعاء أحد الطرفين بأنه أقدم على هذا الارتباط عن جهل بهويه الطرف الآخر، حرم المجلس على المسلمين والمسلمات التزى بزي الفرنج وإلا تحولوا إلى القنية. (٢)

---

(١) د/ محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، ص٣٢٧ .

(*) كان الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس قد أجاز ـ قبل هذا المجلس ـ الزواج المختلط بين الفرنج والمسلمين . رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص١٦٤ .

(**) إذا استؤمنت السبية المسلمة ممن قد قامت عليهم الحجة فأمكنته من نفسها ، حدت ، لأنها مادامت قد استؤمنت فقد انتفى عنها الإكراه ، فعكس ما لو راودها العدو عن نفسها ، فإن عليها أن تمتنع عن ذلك وتصبر على الضرب والتعذيب ، إلا إن أكرهت على ذلك وأصبحت حياتها فى خطر . د/ عبد اللطيف عامر : أحكام الأسرى والسبايا ، ص٣٨٣ .

(٢) د/ حسين عطية : المسلمون فى الإمارات الصليبية ، حولية كلية الآداب . مجلد ٢٧ عدد ٢ ص٨٥ .

أما فى طائفة البولاني (*) فكان من المألوف تماماً أن تكون أم أحدهم أو جدتـــه أو خالتـــه مسيحية شرقية... وكانت مثل هذه الزيجات تجلب معها الخدم والحشم الشرقيين ــ ســواء مـــن المسيحيين أو المسلمين ــ الذين كثرت أعدادهم فى جميع بيوت الفرنجة الأثرياء (١)، وكـــان زواج الفلاح من فلاحة تعيش فى إقطاع سيد آخر أمراً محرماً على الفلاحين. وإذا حدث ذلك بتستر سيد إقطاعي آخر فعلى الأخير أن يعوض سيد الزوجة بفلاحة أخرى من الأقنان بدلاً من التى تزوجهـــا تابعـــه، وتكون فى نفس عمرها وحالتها الاجتماعية. (٢)

(*) البولانية اسم أطلق على أولئك الذين ولدوا فى الأراضي المقدسة ، ولكنهم أيضاً وافدون جدد مثل الأفـــراخ لأن الناس الذين قدموا إلى الأرض المقدسة ، لم يجلبوا إلا عدداً قليلاً من النساء بالمقارنة مع عـــدد الرجـــال فى جيش الأمراء الغربيين ، وهؤلاء الذين مكثوا فى الأرض المقدسة دعوا النساء وتزوجوا منهن . الفيترى : تاريخ بيت المقدس ، ص٩٧ .

(١) يوشع براور : عالم الصليبيين ، ص١٤٢ .

(٢) د/ حسين عطية : المسلمون فى الإمارات الصليبية ، حولية كلية الآداب ، مجلد ٢٧ عدد ٢ ص٧٣ .

تأثير الأسرى المسلمين فى المجتمع الصليبي

مما لاشك فيه أن الحروب الصليبية التى اتخذت من بلاد الشام مسرحاً رئيسياً لأحداثها مدة قرنين من الزمان، أدت إلى وجود احتكاك حضاري بين المسلمين والصليبيين، كان له شأن هام فى انتقال بعض التأثيرات الحضارية الإسلامية عبر بلاد الشام إلى الغرب الأوروبي... ومع أن الصليبيين انتصروا بالقوة العسكرية على شعوب أعرق منهم حضارة وتقدماً، لكنهم تأثروا بتلك الشعوب مع أنها قوة مهزومة عسكرياً. (1)

على الرغم من أن وضع الأسرى المسلمين داخل الإمارات الصليبية كان يتسم بالضعف العام، إلا أنهم تركوا بعض التأثيرات فى المجتمع الصليبي ـــ وإن لم تذكر المصادر التاريخية هذا صراحة ـــ لأنهم كانوا أشد إلتصاقاً وتعايشاً مع الصليبيين من غيرهم من فئات المسلمين فى بلاد الشام، كما أن هؤلاء الأسرى كانوا من فئات متعددة ـــ كما ذكر آنفاً ـــ فكان منهم العسكريون والمدنيون أيضاً من أصحاب الحرف والصناعات الذين استغلهم الصليبيون فى نمو وازدهار كياناتهم الصليبية فى بلاد الشام.

فقد انتقلت الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا زمن الحروب الصليبية عن طريق الجسور التى أقامتها السفن الإيطالية، وبواسطة الحجاج والتجار والصليبيين ـــ أنفسهم ـــ والسياح، فأثر العرب بغناهم المادي الوفير على كافة مجالات الحياة اليومية الأوروبية واغنوها وأوحوا لها بالكثير مما تنعم به الآن (2)، أما عن دور الأسرى فى نقل هذه المظاهر الحضارية العربية الإسلامية، فتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه عن بلاد الأندلس كمعبر من معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا (3): " وقد حمل مشعل الحضارة العربية عبر الأندلس ألوف من الأسرى الأوروبيين عادوا من قرطبة وسرقسطة وغيرها من مراكز الثقافة الأندلسية... كما عمل الأسرى من المسلمين أيضاً على نقل الحضارة العربية لأمراء شمال إسبانية "، وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للأسرى فى بلاد الأندلس فبالقياس على ذلك، يمكن القول بأن الأسرى المسلمين فى الإمارات

(1) د/ الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص٢١٧ ، ٧٥ .

(2) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة / فاروق بيضون ، ط ـــ دار الجيل ـــ بيروت ـــ الطبعة الثامنة ١٩٩٣م ، ص٥٥ .

(3) المرجع السابق : ص٥٣١ ـــ ٥٣٢ .

الصليبية فى بلاد الشام كان لهم تأثير أكبر من ذلك، لكثرة أعدادهم فى الإمارات الصليبية من ناحية، ولاهتمام الغرب الأوروبي عموماً بكل ما هو متعلق بالشرق زمن الحروب الصليبية أكثر من اهتمامه ببلاد الأندلس من ناحية ثانية، ولاعتماد الصليبيين على الأسرى المسلمين فى تسيير أعمالهم لقلة أعدادهم فى بلاد الشام من ناحية ثالثة.

إن المعلومات قليلة جداً عن الاهتمامات الثقافية للنبلاء الصليبيين، ويبدو أن عدداً قليلاً جداً منهم كانوا يهتمون بالتراث الشرقي الغني المحيط بهم، كما أن قليلين منهم أتقنوا اللغة العربية التى كانت اللغة الشائعة فى الشرق ومفتاح كنوزه [1]، وإذا كان بعض اللاتين قد عبروا عن أنفسهم باستخدام اللهجات المحلية [*] فى تخاطبهم، فإن القليل منهم فقط هو من تعلم اللغة العربية وكان يستطيع قراءتها وكتابتها. [2] كان رينالد سيد صيدا (٥٦٧ ـ ٥٨٣هـ / ١١٧١ ـ ١١٨٧م) ممن كان لهم ميل للعلم والدراسة، وله ولع خاص بالآداب العربية، وعرف بإطلاعه على بعض التواريخ والأحاديث، وكان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه [3]، ولاشك أن هذا المسلم الذى كان عنده ويقرأ له كان خادماً له وربما من الأسرى المسلمين الذين تم بيعهم فى سوق الرقيق، بل ربما يكون من الأسرى الذين أبقى عليهم الفرنج للاستفادة منهم ولكن فى الجانب العلمي وليس المهني.

وقد ذكر آنفاً أن بعض الأسيرات المسلمات كن يعملن كطباخات فى بعض بيوت الفرنج فقد تركن هن أيضاً أثرهن فى المطبخ الأوروبي، فإن الصلصات التى كان يوضع عليها الفلفل الأسود أو الأبيض والجنزبيل والكمون قد تم استعارتها من العرب... كما تعلموا ـ أى الأوروبيين ـ عمل المربات التى أصبحت تقدم بعد الوجبات. [4]

---

(١) يوشع براور : عالم الصليبيين ، ص١٥٤ .

(*) يشهد عصر الحروب الصليبية بالذات على انسياب بعض الألفاظ العربية فى اللغات الأوروبية وهي ألفاظ اضطر الصليبيون إلى استخدامها بحكم البيئة . د/ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ص٥٠٧ .

(٢) ستانبلوى : مفاتيح أورشليم القدس ، ص٥٥ .

(٣) د/ الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص٢٢٠ .

(٤) ستانبلوى : مفاتيح أورشليم القدس ، ص٥٧ .

هروب الأسرى المسلمين من أسر الصليبيين

على الرغم من أن الصليبيين كانوا يقومون بشد وثاق الأسرى المسلمين بالأغلال، وأحياناً كانوا يزجون بهم في السجون داخل الإمارات الصليبية عالية الأسوار، إلا أن كل هذا لم يمنع الكثير منهم من الهروب (*) فرادا وجماعات، وذلك للتخلص من الأسر عموماً، ومن المعاملة السيئة القاسية التى كان يعامل بها الصليبيون الأسرى المسلمين خصوصاً. يقول ابن شداد فى أحد المواضع (١): " هرب أسير مسلم من جانبهم ــ أى الفرنج ــ وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرملة ".

ولم يكن الهروب والتخلص من عذاب الأسر ومرارته قاصراً على الأسرى من الرجال فقط، بل شاركتهم فى ذلك النساء أيضاً، وكانت نتيجة هذا الهرب فقدان الحياة، يقول أسامة بن منقذ (٢): " كان هناك رجل كردي يقال له أبو الجيش، له بنت اسمها رفول قد سباها الأفرنج وهو قد توسوس عليها يقول لكل من لقيه يوماً " سبيت رفول " فخرجنا من الغد نسير على النهر فرأينا من جانب الماء سواداً فقلنا لبعض الغلمان " أصبح أبصر ما هذا السواد " فمضى إليه فإذا ذلك السواد رفول عليها ثوب أزرق وقد رمت نفسها من على فرس الأفرنجي الذى أخذها فغرقت، وعلق ثوبها فى شجرة صفصاف، فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش، وقد سكنت لوعة أبيها على الرغم من وفاتها بهذه الطريقة، لأنه كان يرى أن موتها أفضل من أسرها، وهو فى ذلك محق.

إلى جانب هذه الحالات الفردية لهروب الأسرى المسلمين من نار الأسر الصليبي، كانت هناك حالات للهروب الجماعي، ففي سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م استولى الإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين على قلعة الأثارب (**) وترك بها بعض الأسرى المسلمين، ثم اتجه على رأس الجيوش المسيحية صوب معرة النعمان، ولكن دون أن يترك حامية كافية فى الأثارب، مما مكن بعض أسرى المسلمين من الفرار إلى حلب. (٣)

(*) تنتهي حالة الأسر فى القانون الدولي بهروب الأسير ، وتنتهي كذلك بإطلاق سراحه أو مبادلته أو بالصلح . د/ عبد اللطيف عامر : أحكام الأسرى والسبايا ، ص١٦٣ ، حاشية رقم (١٢١) .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص١٩٠ .

(٢) ابن منقذ : الاعتبار ، ص١٤٦ .

(**) الأثارب : قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية . وتحت جبلها قرية تسمى باسمها يقال لها الأثارب . الحموي معجم البلدان جـ١ ص٨٩ .

(٣) د/ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ص٥٩٦ .

ومن حالات الهروب الجماعي أيضاً قول أسامة بن منقذ عن ذلك [1]: " كان الأفرنج يسوقون أساراهم إلى لأشتريهم، فكنت أشترى منهم من سهل الله تعالى خلاصه، فخرج شيطان منهم يقال له (كليام جيبا) فى موكب له يغزى فأخذ مركباً فيه حجاج من المغاربة نحو أربع مئة نفس رجال ونساء، فكان يجئ أقوام مع مالكهم فأشترى منهم ما قدرت على شراه... وقد بقى من الأسرى عند كليام جيبا ثمانية وثلاثون أسيراً، وفيهم امرأة لبعض اللذين خلصهم الله تعالى على يدي، فاشتريتها منه، وما وزنت ثمنها، فركبت إلى داره، لعنه الله، وقلت " تبيعني منهم عشرة ؟ " قال " وحق ديني ما أبيع إلا الجميع " قلت " ما معي ثمن الجميع وأنا أشترى بعضهم والنوبة الأخرى أشترى الباقي " قال " ما أبيعك إلا الجميع، فانصرفت وقدر الله سبحانه أنهم هربوا فى تلك الليلة جميعهم وسكان ضياعهم بعكا كلهم من المسلمين إذا وصل إليهم الأسير أخفوه وأوصلوه إلى بلاد الشام، وتطلبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد وأحسن الله سبحانه خلاصهم وأصبح يطالبني بثمن المرأة التى كنت اشتريتها وما وزنت ثمنها وقد هربت فى من هرب فقلت " سلمها وخذ ثمنها" قال " ثمنها لي من أمس قبل أن تهرب " وألزمني بوزن ثمنها، فوزنته وهان ذلك على لمسرتى بخلاص أولئك المساكين ".

---

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص٨٦ ــ ٨٧ .

جهود المسلمين فى إطلاق سراح الأسرى

يخرج المسلم غازياً فى سبيل الله وهو فى سبيل الله حتى يرجع، وقد وعده الله إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، ولكنه حين يقع أسيراً فهو فى ذمة المسلمين، يحمونه وهو فى الأسر إن استطاعوا ويعملون على خلاصه من هذا الأسر بشتى الوسائل [1]، فمن الصفحات المشرقة فى تاريخ الحروب الصليبية تلك الجهود التى بذلها المسلمون حكاماً ومحكومين فى إطلاق سراح إخوانهم المسلمين من قيد الأسر الصليبي، وقد بلغ الاهتمام بهذه المسألة إلى درجة أن أصبحت عملية الأسرى فى الإمارات الصليبية بمثابة قضية رأي عام، كما نطلق عليها اليوم.

يقول ابن الأثير عن الأحداث التاريخية فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية الإسلامية، عقب سقوط بيت المقدس فى أيد الصليبيين [2]: " ورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد فأوردوا فى الديوان كلاماً أبكى العيون وذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي النساء والأولاد "، بل تحول أمر الاهتمام بالأسرى المسلمين إلى شبه مظاهرة جمعت جميع طوائف الأمة، ورفعت شعار الاهتمام بقضية الأسرى، ففي أول جمعة من شهر شعبان سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م حضر رجل من الأشراف الهاشميين من حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان ببغداد، فاستغاثوا، وأنزلوا الخطيب عن المنبر، وكسروه، وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الإفرنج، وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، ومنعوا الناس من الصلاة... وعاودوا فى الجمعة الثانية المسير إلى جامع الخليفة، وفعلوا مثل ذلك من كثرة البكاء والضجيج والاستغاثة والنحيب. [3]

وبعد أن تنبه الحكام المسلمون إلى خطورة ما لحق بالإسلام والمسلمين، وبدأت جهودهم تتجه نحو إطلاق سراح الأسرى المسلمين، لم تقتصر جهودهم على إطلاق سراح الشخصيات الهامة المأسورة، بل شملت جهود الإطلاق جميع الأسرى بغض النظر عن أماكن أسرهم أو فئاتهم.

هذا ويمكن إجمال الوسائل التى اتبعها المسلمون فى إطلاق سراح الأسرى من الإمارات

(١) د/ عبد اللطيف عامر : أحكام الأسرى والسبايا ص٢٦٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٠ ص٢٨٤ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٧٦ .

الصليبية فى النقاط الآتيـــة:

١ـ الوسائل الحربية:

كان فى مقدمة الوسائل التى اتبعها المسلمون فى إطلاق سراح الأسرى المسلمين الوســائل الحربية من حرب مباشرة مع الصليبيين وإغارة على معسكراهم، وحصار للمدن والقــلاع الــتى يتخذون منها أماكن لتجميع الأسرى المسلمين فيها.

ففى سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م استطاع تنكرد أن يخرج على رأس مائتين من فرســان الصليبيين وألف من مشاهم ليقوم بالإغارة المدمرة فى إقليم السواد ــ ســواد بحــيرة طبريــة ــ استمرت ثمانية أيام وأنزلت كثيراً من الأضرار فى الأرواح والأموال بأهل الإقليم من العرب. وكان هذا الإقليم تابعاً لدقاق ملك دمشق فأرسل أمير السواد يطلب النجدة من ســيده دقــاق ملــك دمشق، فأمده الأخير بنحو خمسمائة فارس، فاستطاعت هذه القوة الصغيرة من الدماشقة أن هاجم مؤخرة قوات تنكرد وجودفرى وأن تطلق سراح من لديهم من أسرى المسلمين. [١]

وكان الفرنج قد بنوا حصناً منيعاً يقارب بانياس [*] بمكان يعرف بمخاضة الأحزان، فسار إليه صلاح الدين عام ٥٧٥هـ / ١١٧٩م... ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسروا كل من فيه وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين. [٢] وفى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م سار صلاح الدين إلى سبسطية [**] وبها جماعة أسرى من المسلمين، فاستنقذهم [٣]، هذه إلى جانب غيرها من الروايــات التاريخية [٤] التى تؤكد على هذه الوسيلة والتى يضيق المقام عن ذكرها.

---

(١) د/ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ص٢٧٠ ــ ٢٧١ .

(*) بانياس : نهر من أنهار دمشق ، الحموي : معجم البلدان . جـ١ ص٣٣٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١١ ص٤٥٧ .

(**) سبسطية : بلدة من نواحي فلسطين بينها وبين بيت المقدس يومان ، وهي من أعمال نــابلس . الحمــوي : معجم البلدان . جـ٣ ص١٨٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١١ ص٥٠٦ ــ ٥٠٧ .

(٤) راجع على سبيل المثال ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٤٩٢ ، ابن الأثــير : الكامــل فى التــاريخ ، جـ١١ ص٥٦.

٢- معاهدات تبادل الأسرى:

كان الحكام المسلمون لا يتركون أى فرصة يمكن من خلالها إطلاق سراح الأسرى المسلمين، إلا واستغلوها فكانوا يستجيبون لمطالب الصليبيين فى عقد المعاهدات والمصالحات التى كان من أهم بنودها إطلاق سراح الأسرى، وتفضيله على المكاسب العسكرية المحفوفة بالمخاطر.

فى سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م خرج الملك العادل الأيوبي من مصر قاصداً بلاد الشام، وأغار على العديد من الجيوب الصليبية بها، وقد أدت هذه الغارات إلى إنزعاج بوهيمند الرابع، فأرسل إلى العادل يلتمس الصلح، وسير له مالاً وثلاثمائة أسير وعدة هدايا، فوافق العادل على عقد الصلح [١]، وفى سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م تم الصلح بين الفرنج والمسلمين على تسليم دمياط للمسلمين، وإطلاق ما بأيديهم من أسرى المسلمين، وإطلاق ما بأيدي المسلمين من أسراهم [٢]، وقد تمت هذه الاتفاقية على الرغم من معارضة الأنظمة العسكرية الدينية ــ مثل الداوية ــ لهذه الاتفاقية، حيث إن تعاليمهم تنص على خطر الانسحاب أو الهرب أمام العدو أثناء المعركة، كما كانوا لا يدفعون أى فدية للأسرى الذين يخضعون لنظامهم مهما كانت مراكزهم... فكانت النظم الدينية العسكرية تشكل دائماً الوجه المناصر للحرب، حيث إنها كانت سبب وجودهم وأساس ثرواتهم وقوتهم، ولهذا كانوا دوماً ضد كل الجهود لأى اتفاق مع المسلمين، أما ردود فعل المسلمين لكل هذه التعاليم فلم تكن مستغربة، ففي الغالب كان يتم إطلاق سراح الأسرى فوراً، إذ لا يوجد سبب للاحتفاظ بهم أسرى. [٣]

---

(١) د/ محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، ص١٠١ .

(٢) ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول ، ص٢٠٦ .

(٣) ستانبلوى : مفاتيح أورشليم القدس ، ص٨١ ــ ٨٢ .

وقضت المعاهدة التى تمت بين السلطان الكامل الأيوبي والإمبراطور فردريك ففـي سـنةِ ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م ، أيضاً على إطلاق سراح الأسرى عند كلا الجانبين (١)، كما أرسل الملـك لويس التاسع سفارة إلى القاهرة بعد هزيمته فى دمياط سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م لتسوية مـشكلة أسرى الفرنج، فتم الإفراج عن نحو ثلاثة آلاف من الأسرى الفرنج، وذلك مقابل إطلاق سـراح ثلاثمائة من الأسرى المسلمين الذين وقعوا بأيدي الفرنج (٢)، ونلاحظ هنا قلة عدد من تم إطـلاق سراحه من الأسرى المسلمين " ثلاثمائة أسير " مع كثرة عدد من تم إطلاق سراحه مـن الأسـرى الفرنج " ثلاثة آلاف أسير "، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى كثرة عدد الأسرى الفـرنج عنـد المسلمين عموماً فى ذلك الوقت، الذى أعقب هزيمة الفرنج فى دمياط، وأسر الملك لويس التاسـع نفسه فى هذه المعركة، فضلاً عن الآلاف من جنود حملته الفاشلة التى عرفت بالحملـة الـصليبية السابعـة.

أحياناً كانت عملية تبادل الأسرى لا تتم عن طريق المعاهدات والاتفاقيات ولكـن عـن طريق آخر، كأن يفدى أحد الصليبيين نفسه من أسر المسلمين مقابل إطلاق عدد مـن الأسـرى المسلمين، ففي عام ٥١٣هـ / ١١١٩م حدثت واقعة بين المسلمين والفرنج، فقتل مـن الفـرنج سبعون، وأسر اثنا عشر من مقدميهم، فبذل كل واحد منهم فى فداء نفسه مالاً جزيلاً وعده مـن الأسرى (٣)، ويقول المؤرخ المجهول عن الملك ريتشارد (٤): " أعد الملك ريتشارد كل ما يحتاج إليه فى سفره من زاد وسلاح، ثم دفعه سموه وعظمته ونبل نفسه إلى افتداء " وليم دى بـرو " فـأطلق سراح عشرة من كبار الترك مقابل تحرير وليم من أسرهم ".

٣ـ بذل المال:

من الملاحظ فى عصر الحروب الصليبية ندرة افتداء الأسرى الصليبيين بالمال، ومرجع ذلك فى الغالب إلى أن أولئك الأسرى خليط من أجناس وشعوب أوروبية مختلفة، لم تنـصهر فى بوتقـة

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٤ ص٢٣٠ .

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٥ ص٤٧٥ ـــ ٤٧٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٠ ص٥٥٦ .

(٤) مجهول : الحرب الصليبية الثالثة ، جـ٢ ص٢٧٩ .

واحدة، بالإضافة إلى تفكك الروابط الأسرية والقومية، وانعدامها بين الأوربيين [1]، أما فى المعسكر الإسلامي، فنجد العكس من ذلك، إذ لم يبخل أحد من أفراد الأمة الإسلامية ممن يملكون المال، عن بذله فى فداء إخوانهم المسلمين من ذل الأسر.

ففي سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م أرسل دقاق ملك دمشق يعرض على بلدوين الأول ملك بيت المقدس، خمسين ألف قطعة ذهبية فدية للأسرى الذين وقعوا فى يدي بلدوين [2]، وبعث صلاح الدين إلى ملك إنجلترا فى عكا بأربعة وعشرين ألف دينار ذهب فى إعتاق الأسرى العرب. [3]

يقول ابن الأثير عن الوزير جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني، وزير قطب الدين صاحب الموصل، وذلك فى ترجمته فى حوادث عام ٥٥٩هـ / ١١٦٣م [4]: " كانت صدقاته وصلاته من أقاصي خراسان إلى حدود اليمن، وكان يشترى الأسرى كل سنة بعشرة آلاف دينار هذا من الشام فحسب ". ويقول ابن جبير عن جهود عامة المسلمين فى هذا الأمر الجليل [5]:" ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها، إنما يعينها فى افتكاك المغاربة خاصة، لبعدهم عن بلادهم، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل ".

---

(١) د/ الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص١٨١ .

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ص١١٩ .

(٣) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص٢٢٣ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١١ ص٣٠٦ ـ ٣٠٩ .

(٥) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص٢٥٣ .

معاملة المسلمين للأسرى الصليبيين

لعله من الأهمية بمكان أن نتحدث عن معاملة المسلمين للأسرى الصليبيين كي يتضح الفرق فى المعاملة بين المسلمين والصليبيين، فبينما كان الصليبيون يعاملون الأسرى المسلمين معاملة سيئة، لا تمت للأخلاق الإنسانية بأي صلة، كان المسلمون يعاملون الأسرى الصليبيين بمكارم الأخلاق (*) المستمدة من تعاليم الإسلام، والتى تأمر بإكرام الأسرى على الرغم من انتمائهم لمعسكر الأعداء، وقد شهد على هذه المعاملة الحسنة المؤرخون الصليبيون أنفسهم، فالفضل ما شهدت به الأعداء كما يقولون.

فى سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م حاصر نور الدين محمود مدينة بانياس، فأجبر من كان بها على الاستسلام بعد أيام قلائل على أن يؤذن لهم بمغادرة المدينة بما ملكته أيديهم سالمين من غير سوء (١)، وهذه المعاملة لم يعرفها الصليبيون كثيراً فى فترة مكوثهم فى بلاد الشام على مدى نحو قرنين من الزمان.

كان صلاح الدين الأيوبي صفحة رائعة فى تاريخ الحروب الصليبية ببلاد الشام، ويكفي أن الشهرة الأسطورية التى عرفت بها فروسيته تركت انطباعاً فى الغرب الأوروبي، حتى إن العديد من الفرنسيين لم يترددوا فى إعطاء اسم صلاح الدين لأطفالهم. (٢)

وكانت أروع الصفحات فى معاملته الحسنة للصليبيين عندما استولى على مدينة القدس الشريف، فقد أيقن الفرنج بالهلاك والخذلان وطلبوا الأمان، فاستقر الأمر على أن يخرجوا بأنفسهم وأولادهم سوى الخيل الحربية والسلاح، بعد أن يؤدي كل واحد منهم عن الرجل عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصبي والبنت أربعة دنانير، وعن الطفل دينار... ومن أراد من النصارى الإقامة فليقم وتؤخذ منه الجزية. (٣)

(*) يقول ابن شداد : " كان على عادة جميل العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن بذلك جريا على مكارم الأخلاق " . النوادر السلطانية : ص ٦٣ ــ ٦٤ .

(١) وليم الصورى : الحروب الصليبية ، جـ٤ ص٣٥ .

(٢) د/ الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص٢٥٥ ــ ٢٥٦ .

(٣) الحريرى : الإعلام والتبيين ، ص٣٧ .

يقول المؤرخ المجهول [1]: " والآن سأقص عليك كيف استطاع صلاح الدين أن يمنع وقوع أى أذى بمسيحي القدس من جانب المسلمين، ذلك أنه وضع فى كل شارع فارسين وعشرة من الجند لحراسة البلدة فقاموا بالحفاظ عليها خير قيام وعلى أكمل وجه، حتى إنني لم أسمع بأى مضرة أصابت المسيحيين... وعهد صلاح الدين إلى قواته بحماية المسيحيين ليلاً ونهاراً "، وترك صلاح الدين الخيار للذين اشتروا حريتهم بين أمرين: إما المضى إلى أنطاكية، وإما الخروج تحت الحراسة إلى الإسكندرية للرحيل منها إلى أوروبا. [2]

وكان منهم من طلب الإقامة فى القدس، فقد كان بها كهلين اسم أحدهما " روبرت دى كودر " Coudre كان ممن صحبوا جودفرى دى بويون وقت الفتح سنة ١٠٩٩م، وأما الآخر فيدعى " فوشيه فيولى "Foucher Fiole من مواليد القدس، ولما كانا كهلين فقد أشفق عليهما صلاح الدين حين سألاه أن يأذن لهما بالإقامة حيث هما حتى يختما حياتهما فى مدينة القدس، فرحب صلاح الدين بما طلباه منه وأذن لهما فى الإقامة وأمر بتزويدهما بكل ما هما فى حاجة إليه طوال أيامهما الباقية لهما فى الدنيا. [3]

ويقول المؤرخ المجهول عن جنود صلاح الدين الذين صاحبوا الفرنجة النازحين من بيت المقدس بعد تحرير صلاح الدين لها [4]: " كان أهل المؤخرة إذا رأوا رجلاً أو امرأة أو طفلاً قد أضر به المشي وأنهكه السير... أمروا أتباعهم بالنزول عن ظهور جيادهم والترجل، وكلفوهم أن يحملوا المرهق المتعب حتى يوصلوه إلى معسكره، أما إن كان الضعيف طفلاً أردفوه خلفهم أو جعلوه أمامهم، فإذا بلغ غايته وتناول عشاءه، وسدوه الفراش ليأخذ حظه من النوم ".

وعندما ذهب إلى الإسكندرية بعض الذين جاؤوا من القدس تلقاهم واليها لقاء طيباً، وأحسن معاملتهم وأقامهم فى مواضع أحاطها بالأسلاك لحراستهم، كما أقام الحراسة عليهم ليلاً ونهاراً، وصانهم بهذه الطريقة طول فصل الشتاء فظلوا مقيمين بالإسكندرية حتى شهر مارس حين

---

(١) مجهول : ذيل وليم الصورى ، ص١٢١ .

(٢) مجهول : الحرب الصليبية الثالثة ، جـ١ ص٤٢ .

(٣) مجهول : ذيل وليم الصورى ، ص٨٤ .

(٤) المصدر السابق : ص١٢٥ .

ركبوا البحر للسفر إلى البلاد المسيحية. [1] ولم تكن هذه الأخلاق النبيلة فى معاملة الصليبيين قاصرة على عهد صلاح الدين فقط، فقد التزم بها من جاء بعده من الحكام الأيوبيين، بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة فى احتلال دمياط سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م، ووقع العديد من الأسرى الصليبيين فى أيدي المسلمين، عامل السلطان الكامل الأيوبي أسراهم بما تمليه عليه مبادئ الإسلام التى تحث على إكرام الأسرى، مما دفع جاك دى فيترى أسقف عكا والواعظ الرسمي لهذه الحملة بالكتابة للسلطان ليشكره على تحرير الأسرى الصليبيين فقال له: " عطف السلطان على الصليبيين يكبر أكثر فأكثر، عندما تم التوقيع على المعاهدة أعطى الحرية لمحبي المسيح الذين كانوا فى سجونه، وكان لديه ثلاثون ألفاً، فأعطى لهم الحياة وخيرهم بين الرجوع إلى بلادهم أو الانضمام إلى جيشه، وأمر بإعطاء هؤلاء الرجال المحررين مؤناً لإعاشتهم، وأخذ ثمن ذلك من الأغنياء منهم، وأعطاها مجاناً للفقراء والمرضى... ". [2]

وقد طلب الكاردينال بيلاج ـ أحد المسئولين فى الحملة ذاتها ـ من سكرتيره شنوان أوليفيرا دى بادربون، كتابة رسالة للسلطان ليشكره على المعاملة الإنسانية التى عومل بها الأسرى المسيحيون فكتب له يقول: " ليزد المولى من النعم عليك، وليخلع من قلبك الظلم حتى يمكنك التعرف على الحقيقة، أنا سجينك المحرر، خادمك المعتوق، ولا يمكن أن أكون كافراً بالنعمة بعد أفعالك الحسنة، لم يحك أبداً عن أمثلة أكثر كرماً قبالة الأسرى الأعداء، لقد سمح المولى أن نكون أسرى بين يديك، ولكن لم يكن لدينا شعور بأننا بين يدي طاغية أو سيد، ولكن تحت سيطرة أب أنعم فى المعاملة الحسنة، وأنقذنا من الخطر، وزارنا فى محنتنا، كما تحمل كذلك ضجيجنا... لقد رعيت مرضانا، وعاقبت بشدة الذين كانوا يريدون بنا شراً... إنه حق أن تسمى " الكامل " لأنك تحكم بحكمة وفضيلة، وأنت سيد على كل الأمراء الآخرين..". [3]

(١) مجهول : ذيل وليم الصورى ، ص١٢٧ .

(٢) ستانبلوى : مفاتيح أورشليم القدس ، ص١٥٥ ـ ١٥٦ .

(٣) المرجع السابق : نفس الصفحة .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولاً: المصادر العربية والمعربة

ابن الأثير: علي بن أبي الكرم محمد المعروف بابن الأثير. ت ٦٣٠هـ

١ــ الكامل فى التاريخ، ط ــ دار صادر ــ بيروت سنة ١٩٧٩م.

توديبود: بطرس توديبود. ت ١٠٩٩م.

٢ــ تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة د/ حسين عطية، ط ــ دار المعرفة الجامعية ــ الإسكندرية ــ الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

ابن جبير: محمد بن أحمد بن جبير. ت ٦١٤هـ

٣ــ اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك، المعروف برحلة ابن جبير، ط مكتبة الهلال ــ بيروت ١٩٨١م.

الحريري: أحمد بن علي بن أحمد الحرير. ت ٩٢٦هـ

٤ــ الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، تحقيق د/ مهدي رزق الله أحمد، ط ــ دار الدعوة للنشر ــ الإسكندرية ١٩٨٤م.

الحموي: ياقوت بن عبد الله الحموي. ت٦٢٦هـ

٥ــ معجم البلدان، ط ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت سنة ١٩٧٩م.

الحنبلي: أبو اليمن مجير الدين الحنبلي.

٦ــ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ط ــ حيدر آباد ــ الهند ــ لم تذكر سنة الطبع.

ريموندا جيل: ريموندا جيل

٧ــ تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة د/ حسين عطية ــ ط ــ دار المعرفة الجامعية ــ الإسكندرية ــ الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

سايولف: الحاج سايولف.

٨ــ وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأراضي المقدسة ١١٠٢ ــ ١١٠٣م، ترجمة د/ سعيد البيشاوي ــ ط ــ دار الشروق ــ عمان ــ الأردن ــ الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

الشارترى: فوشيه الشارترى.ت١١٢٧م.

٩ـ تاريخ الحملة إلى القدس ١٠٥٩ ـ ١١٢٧م، ترجمة د/ زياد العسلي، ط ـ دار الشروق ـ عمان ـ الأردن ـ الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

ابن شداد: القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد. ت ٦٣٢هـ

١٠ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ ط ـ دار الفكر ـ بيروت ـ لم تذكر سنة الطبع.

أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة. ت٦٦٥هـ

١١ـ عيون الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق / أحمد البيومي، ط ـ دار إحياء التراث العربي ـ دمشق ١٩٩٢م.

الصورى: وليم الصورى.

١٢ـ الحروب الصليبية، ترجمة د/ حسن حبشى، ط ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩١م.

العامري: محمد بن يوسف العامري. ت٣١٨هـ

١٣ـ الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق د/ أحمد عبد الحميد غراب، ط ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٦٧م.

ابن العبرى: غريغوريوس بن أهرون المعروف بابن العبرى. ت ٦٨٥هـ

١٤ـ تاريخ الزمان، نقله إلى العربية / إسحاق أرملة، ط ـ دار المشرق ـ بيروت سنة ١٩٩١م.

١٥ـ مختصر تاريخ الدول، وضع حواشيه / خليل منصور، ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

ابن العميد: المكين جرجس بن العميد. ت ٦٧٢هـ

١٦ـ أخبار الأيوبيين، تحقيق / كلود كاهن، ط ـ مكتبة الثقافة ـ القاهرة ـ لم تذكر سنة الطبع.

الفيترى: يعقوب الفيترى. ت ١٢٤٠م

١٧ـ تاريخ بيت المقدس، ترجمة د/ سعيد البيشاوي، ط ـ دار الشروق ـ عمان ـ الأردن ـ الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

الفيروز أبادي: محمد بن يعقوب الفيروز أبادي. ت ٨١٧هـ

١٨ــ القاموس المحيط، ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م.

ابن القلانسي: حمزة بن أسد بن علي المعروف بابن القلانسي. ت ٥٥٥هـ

١٩ــ ذيل تاريخ دمشق، تحقيق د/ سهيل زكار، ط ــ دار حسان ــ دمشق ــ الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

مجهول: مجهول

٢٠ــ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة د/ حسن حبشي، ط ــ دار الفكر العربي ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع.

مجهول: مجهول. كان حياً حتى سنة ١٢٤٣م.

٢١ــ تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، تحقيق / أنطوان خاطر، ط ــ المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٧٤م.

مجهول: مجهول.

٢٢ــ تتمة كتاب وليم الصورى، ترجمة د/ أسامة زكي زيد، ط ــ الإسكندرية سنة ١٩٨٩م.

مجهول: مجهول.

٢٣ــ الحرب الصليبية الثالثة " صلاح الدين وريتشارد " ترجمة د/ حسن حبشي، ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م.

مجهول: مجهول.

٢٤ــ ذيل وليم الصورى، ترجمة د/ حسن حبشي، ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٢م.

ابن منقذ: أسامة بن منقذ. ت ٥٨٤هـ

٢٥ــ الاعتبار، ط ــ دار الهلال ــ القاهرة سنة ٢٠٠٢م.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة

براور: يوشع براور.

١ــ عالم الصليبيين، ترجمة د/ قاسم عبده قاسم، ط ــ دار المعارف ١٩٨١م.

برجاوي: سعيد أحمد برجاوي.

٢ــ الحروب الصليبية فى المشرق، ط ــ دار الآفاق الجديدة ــ بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤م.

حبشي: د/ حسن حبشي.

٣ــ الحرب الصليبية الأولى، ط ــ دار لفكر العربي ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع.

الحويرى: د/ محمد محمد الحويرى

٤ــ الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، ط ــ دار المعارف سنة ١٩٧٩م.

دهمان: محمد أحمد دهمان.

٥ــ معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكي، ط ــ دار الفكر ــ دمشق ــ الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

رنسيمان: ستيفن رنسيمان.

٦ــ تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د/ السيد الباز العريني، ط ــ درا الثقافة ــ بيروت سنة ١٩٩٧م.

زهران: البدراوي زهران.

٧ــ علم اللغة التاريخي دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى، ط ــ دار المعارف ــ الطبعة الثانية ١٩٨١م.

ستانبلوى: ريمون ستانبلوى.

٨ــ مفاتيح أورشليم القدس حملتان صليبيتان على مصر، ترجمة / عايدة الباجوري، ط ــ المجلس الأعلى للثقافة ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

سميث: جوناثان رايلى سميث.

٩ــ تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية، ترجمة د/ قاسم عبــده قاســم، ط ــ مؤســسة عــين للدراسات ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

الشاعر: د/ محمد فتحي الشاعر.

١٠ــ أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس، ط ــ المطبعة الفنية الحديثــة ــ القــاهرة ســنة ١٩٨٩م.

عاشور: د/ سعيد عبد الفتاح عاشور.

١١ــ الحركة الصليبية، ط ــ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٢م.

عامر: د/ عبد اللطيف عامر.

١٢ــ أحكام الأسرى والسبايا فى الحروب الإسلامية، ط ــ دار الكتاب اللبناني ــ بــيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

عمران: د/ محمود سعيد عمران.

١٣ــ الحملة الصليبية الخامسة، ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨م.

قاسم: د/ قاسم عبده قاسم.

١٤ــ ماهية الحروب الصليبية، ط ــ المجلس الأعلى للثقافة ــ الكويت ــ ١٩٩٠م

كلارك: جون هنريك كلارك

١٥ــ تجارة الرق والرقيق، ترجمة / مصطفى الشهابي، ط ــ دار الهلال ــ القاهرة سنة ١٩٨١م.

موسى: تيسير بن موسى.

١٦ــ غزوات الإفرنج، ط ــ الدار العربية للكتاب ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع

مؤنس: د/ حسين مؤنس.

١٧ــ أطلس تاريخ الإسلام، ط ــ الزهراء للإعلام العربي ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

نخبة من العلماء.

١٨ــ دائرة المعارف الإسلامية، ط ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع.

هونكه: زيغريد هونكــه.

١٩ــ شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة / فاروق بيضون، ط ــ دار الجيل ــ بــيروت ــ الطبعة الثامنة ١٩٩٣م.

ثالثاً: الرسائل العلمية

الغمرى: سعيد محمد الغمرى

١ــ الحرف والصناعات فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب ــ جامعة الزقازيق سنة ١٩٩٨م.

رابعاً: الدوريات

١ــ حولية كلية الآداب: دورية علمية نصف سنوية تصدر عن كلية الآداب ــ جامعة عين شمس، المجلد ٢٧ العدد ٢ سنة ١٩٩٩م.